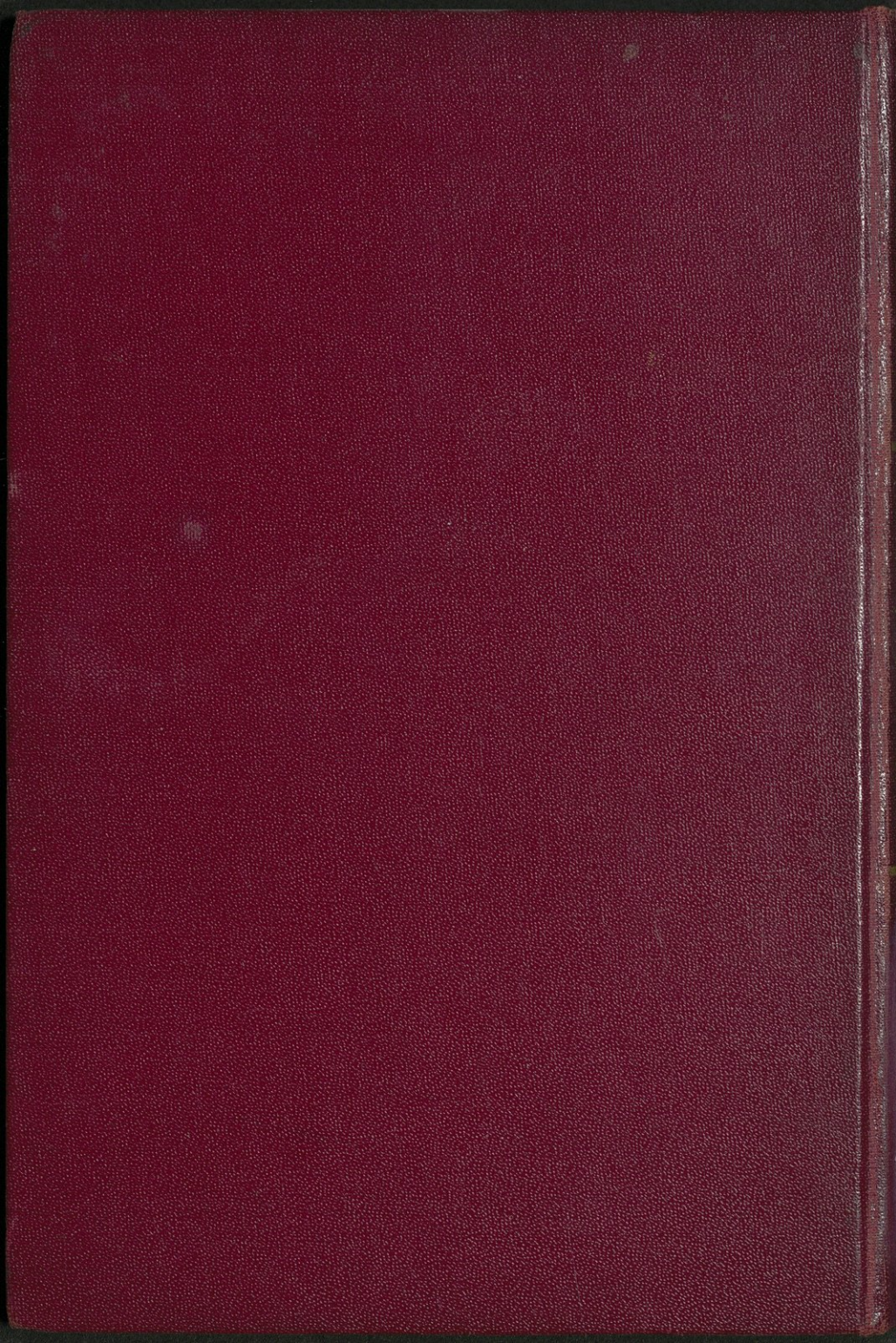
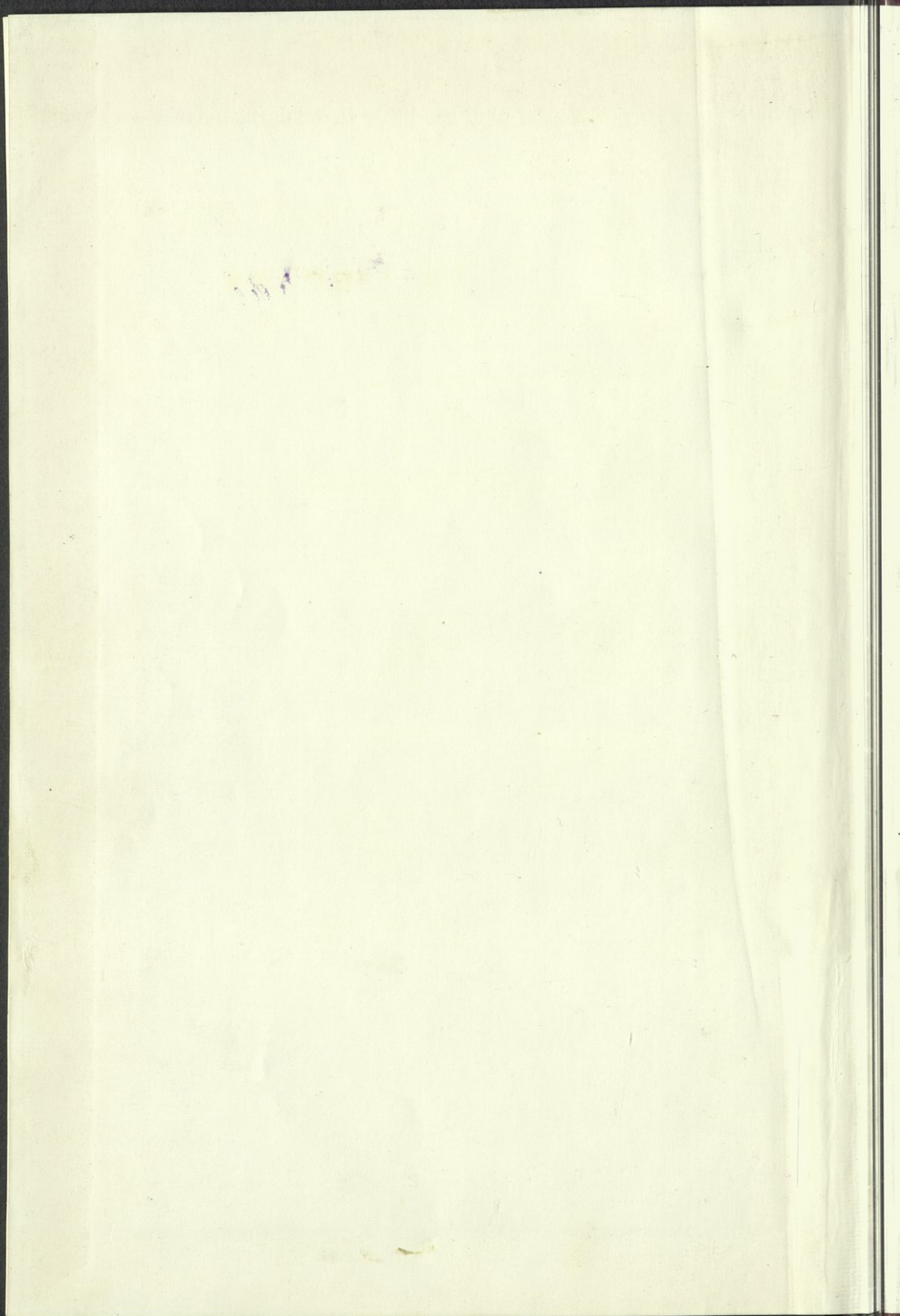
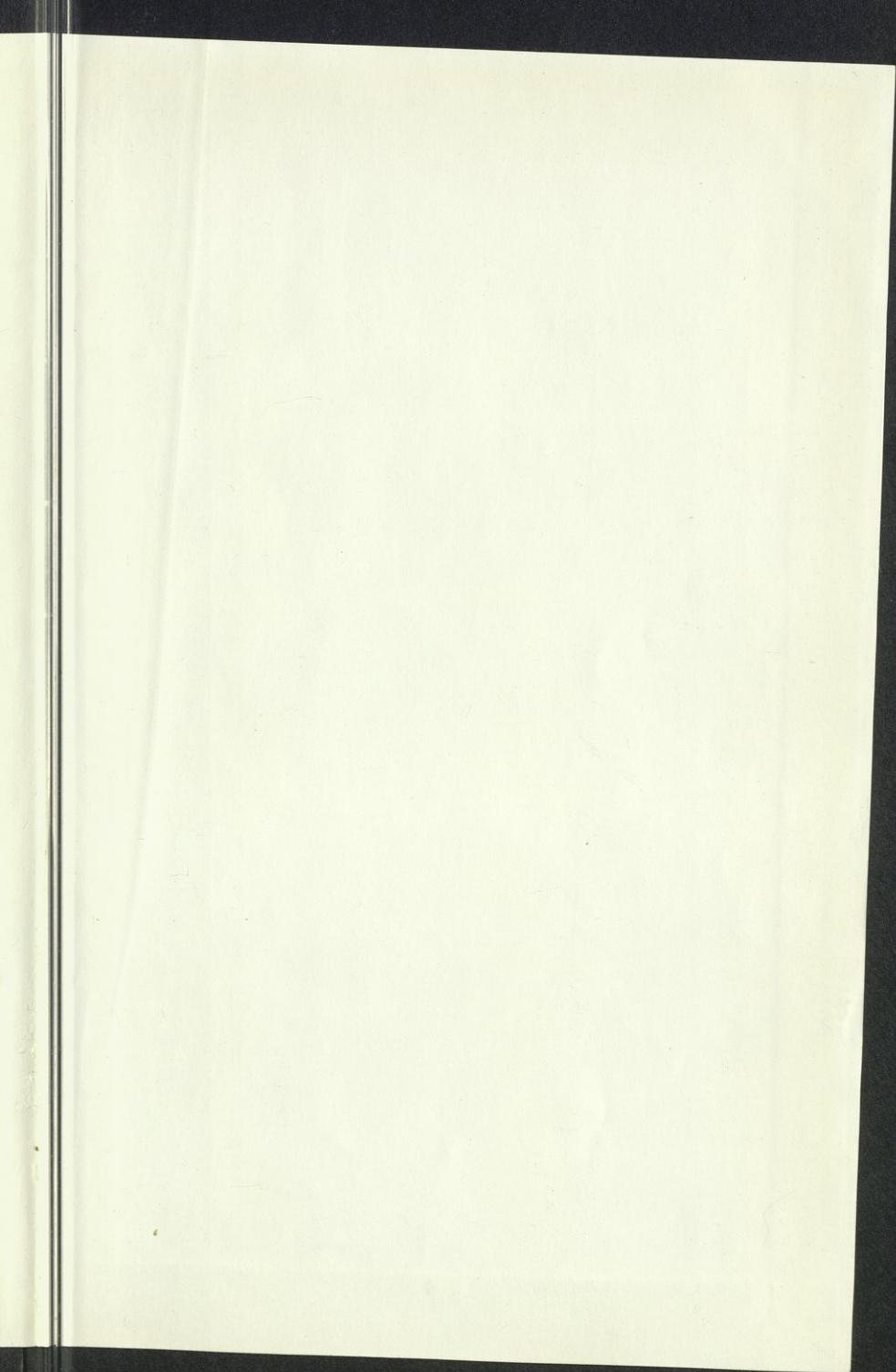
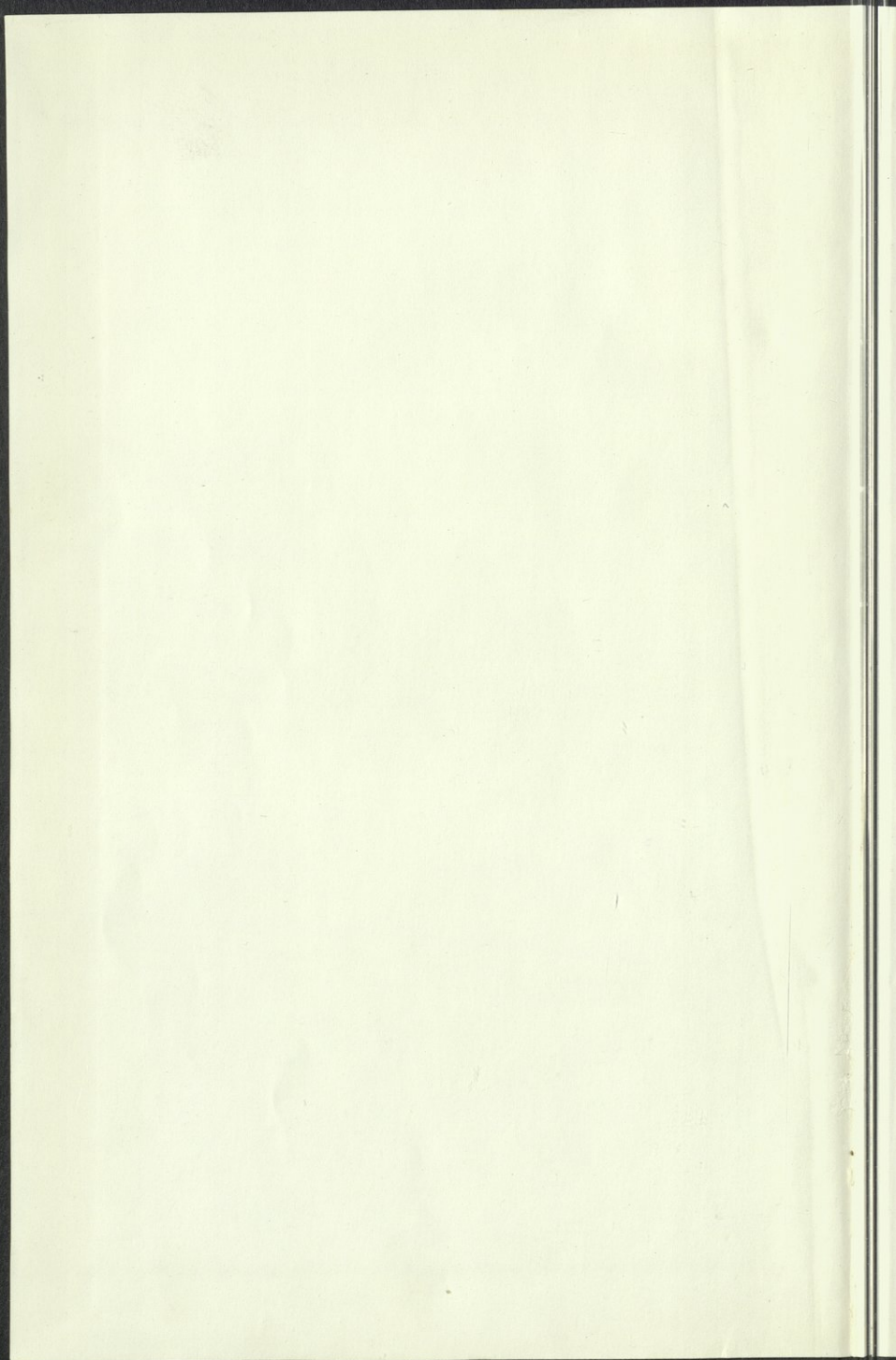




A.U.B. LIBRARY







سيرة إلى الأبد
السير ادوين ص. جيب
الاديب رنقعة
مراجعة من المؤلف
جيب

جميل جيب

892.78

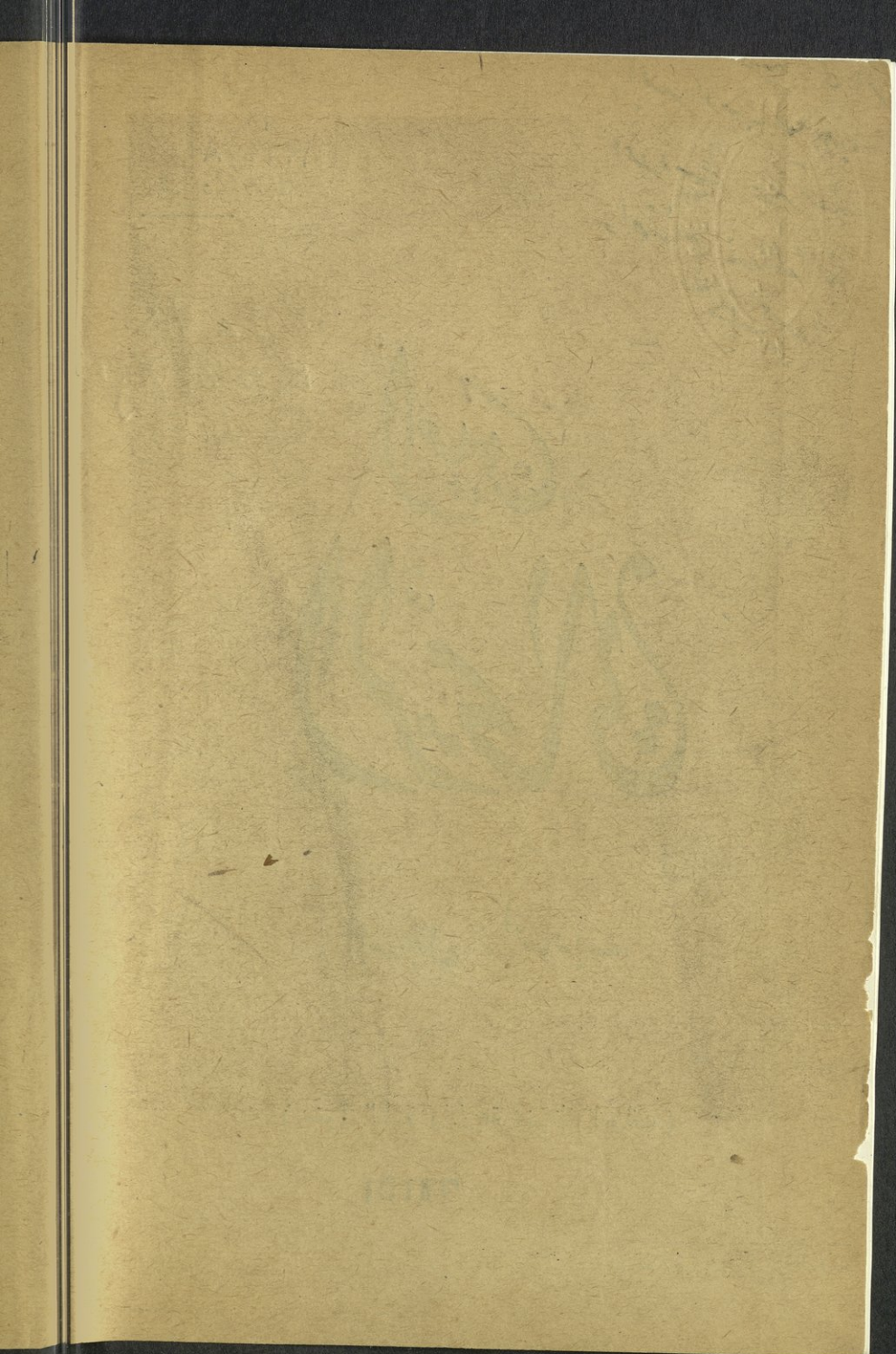
R572Y
C L

ادوين الرشحات

الرجل والاديب

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف)

78191





امين الريحاني

في آخر حياته



الى ج ٠٠٠

والى الزبيده اذا عاشوا عاشوا مثلهم اقدم هذا الكتاب

محميل جبر

مراجع

عدا كتب الريحاني التي نشرت ام لم تنشر .

امين الريحاني	بقلم البوت الريحاني بيروت سنة ١٩٤١
ذكرى الريحاني	بناسبة الحفلة التذكارية التي اقيمت سنة ١٩٤٥
الحقيقة اللبنانية	لعمر فاخوري بيروت سنة ١٩٤١
الباب المرصود	لعمر فاخوري
الغربال	لميخائيل نعيمة
البيادر	نعيمة
مقدمة	كراتشوفسكي
الريحاني في العراق	رفائيل بطي
الريحاني في مصر	الرافعي
اطواق الذهب (بالاسبانية)	فاركاس فيلا
نحن الشعراء	

The shape of things to come . Wells

مجموعات المكشوف ، الكشف ، الضاد ، الكلمة ، الهلال ، الاديب ، المشرق
المرأة الجديدة ، منيرفا ، المنار ، الهدى ، العرفان ، الدهور ، النداء ، زحله الفتاة
عدا الجرائد اليومية .

The print connoisseur

بعد سنة ١٩٢٥ :

Europäische Gespräche für
Aunvartige politik (1929)
Syrian world ; Aryan path
The open court of America
Asia ; Current History
Intelligencia

نوطه

لما كان الرجل والاديب لدى الريحاني يتداخلان يتكاملان فيؤلفان وحدة متماسكة
الاجزاء متجانسة الفعالية ، رأيت ، وانا احاول درسه ، ان اعايشه ، خطوة خطوة ،
من مهده الى القبر وانفذ الى اعماق ذاته متمسكاً دوافعها المختلفة وانعكاسها في ما
اخرج من مؤلفات ، وقد نظرت الى هذه كمجرد احداث بارزة في صميم حياته ،
كيف لا ومراحل العمر لدى امين فصول في مجرى انتاجه ، وآثاره ، في معظمها ،
دقائق من صميمه . فلذا رحت اتصل بذويه وجيرانه والادباء معاصريه التقط عنهم
ما ترك امين من وجوده حياً لديهم خلال ايامه ، فاطلعني مفصلاً اخوه البوت واخنة
سعدى على اوضاع معيشته البيئية وتصرفاته الخاصة والعامة وعلى صلاته الودية
بالمجتمع وعلاقاته بالناس ، كما حدثني قسطنطين يني ، جرجي باز ، عمر فاخوري ،
حليم دموس ، الياس ابو شبكة وادباء آخرون عاشروا الامين في لبنان وفي الجزيرة
العربية عما عرفوا منه وعنه من تفاصيل دقيقة وافية كشفت بعض مناحي الرجل
المعقدة وافادني ميخائيل نعيمة ، امين العريب ، ابراهيم الحتي وتوفيق الشرتوني عما
علموه حوله وحول مختلف الاوساط التي تردد اليها وتفاعل معها ، هنا وفي اميركة ،
لا يسعني في هذا المجال الا ان اعرب لهم جميعاً عن جزيل امتناني لما ابدوه نحوي
من تشجيع وغيره واهتمام هونت علي مصاعب المهمة .

وقد قضيت فضلاً عن هذا كله بعض الزمن في جو الفريكة الساكن، في قلب «الصومعة» (١)، استوحيه، وهناك درست مؤلفات الريحاني في العربية والانكليزية حسب ترتيب ظهورها واطلعت على مراسلاته الخاصة وعلى أكثر ما كتبته حوله الصلح والمجلات والكتب في اللغات العربية، الانكليزية، الفرنسية، العبرانية، البرتغالية، الاسبانية، الالمانية، الايطالية، الروسية، الاسوجية، الدنمركية، اليابانية والهندية (٢)، وقد عرفته جميعها، فقابلت بين هذه المصادر على اختلافها وعللت وبحث واستنتجت، حتى تم لي ما بين يديك ايها القارئ الكريم، ولا ادعي فيه بلوغ المرام كله.

لقد حدثني على دراسة الريحاني عوامل واسباب شتى، اهمها اقرار بالفضل ضئيل، لذلك المعلم الوطني الذي نادى بالاستقلال عالياً جريئاً يوم كانت الاعناق ارحص السلع «ان عزاً في الممات لخير من حياة شاكية باكية تتوسد اليأس وتلتحف الخنوع»، لذلك المجاهد المصلح الذي بشر عن عقيدة واخلص بالتعاون العربي في اقصى حدوده وبذل زهرة سنينه في خدمة العرب ورفع شأنهم، لذلك الاديب الانساني الموسوعي الذي جعل من ادبه غاية مثلى فعمل على ترقية الكائن البشري بهدي الحرية والخير والجمال والحق لا يغريه مال ولا تغره ظواهر واخيراً لتلك الصلة الوثيقة بين الشرق والغرب وذلك الانفوج الحي للاشعاع اللبناني عبر الاميال والقرون اللذين كانها امين في حياته وادبه.

هذي باكورتي، ادفعها اليك، دونما واسطة بيني وبينك، ايها القارئ الواعي، عليها تعرفك ولو من بعيد بهذا الوجه الجذاب فاكون بلغت قصدي وقمت بواجب الجار.

بيت شباب في اول يناير سنة ١٩٤٧

جميل جبر

(١) مكتب الريحاني في الفريكة. (٢) استعنت بترجمة المؤلفات الى العربية او الانكليزية.

نشأة مظربة

ان وواء كل معركة ميداناً لمعركة اخرى و
كل فوز ما يدعو لاستئناف الجهاد
- الريجاني -

على منعطف واد مهيب فوق مغارة نهر الكلب « تنثر الطبيعة تحت قدميه
الشتاء ، ازاهر الدفلى وتكلم رأسه ، في الربيع والصف بازاهير اللزان » (١) ق
وادعة آهلة بكروم اللوز والزيتون والتوت ، لا تبلغ منازلها العشرين عداً. هنالك
الفريكة ولد امين الريجاني في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ .

ابوه فارس بن انطون بن يوسف بن المطران باسيل البجاني تلميذ مدرسة ر
ينتهي نسبه الى بني سعاد في اهدن ، تزح جدوده الى بجه فانتسبوا اليها ثم غادرها
عبد الاحد واقام في الشاوية - قرب الفريكة - حيث عرف بالريجاني لوفرة الأ
في جوار منزله وهو تاجر حرير ميسور ، حاد الطباع ، كريم الخلق ، يجسم
البناني المتوسط المحافظ على التقاليد ، الساهر على مصالحه وعياله .

وامه ، انيسة ابنة جفال طعمه البجاني شيخ القرنة الحمراء ، تصرف اوقات
« صائمة مصلية زاهدة متعبدة تقرر الصدر وتتردد الى الكنائس » (٢) وتعا

(١) وادي (الفريكة) - (٢) من كلمة في احدى حفلات نكرم الريجاني بمصر سنة

تدبير منزلها والاهتمام بزوجها وابنائها شأنها في ذلك شأن القرويات البعيدات عن مرافق
 المدنية الزائفة. والفريكيون عامة كسائر لبنانيي الجبل، سليمو الطوية صليبو الرأي
 سعون بجد كلي الى كسب خبزهم وتوفير اسباب الرخاء لذويهم. موارد ضئيلة اخضاها
 راعة التوت والكرمة وتربية الفز والماعز والابقار، ثقافتهم بدائية لا تعدو كتابة
 رسائل العائلية وقراءة المهلهل وبني هلال، اما سياستهم فعقيمة باطلة تنحصر في
 حليات، قوامها تحزب اعمى لهذا المختار ولذلك الناطور او عليها دون ان تراعى
 مصلحة العامة في حال من الاحوال، وهم الى ذلك يحلون خوري الرعية منهل الحقيقة
 عرفهم ويقدمون اقواله كما انهم ينقادون صاغرين لمشئنة شيخ الضيعة رمز الكمال
 شري مؤمنين بعدلته وسداد رأيه. وقد حافظوا على تقاليد جدودهم محافظتهم على
 رائع الدين ونواهيه، يتشائمون اذا زارهم عائد من جنازة واذا عوى الكلب ليلاً
 نعبت البوم، يصغون باهتمام الى الخرافات، يعتقدون بوجود منازل يسكنها الجن
 شرات تبشر بالخير ويصدقون اقوال المشعوذين و«البصارة براجه». سخافات
 يوحىها ضعف التعليل والعقلية الساذجة. تلك هي باختصار اوضاع البيئة التي
 فيها امين سني حداثته فكان لها رد فعل بليغ في حياته المقبلة.

٢

رف امين منذ الصغر بحبويته الجائشة وشدة المراس، فكان ولداً مغامراً مولعاً
 يطوف في الغابات منذ الفجر ممزق الثياب حافي القدمين مع سائر الاحداث
 يتسلقون الاشجار ساعين وراء اعشاش العصافير، يطاردون الفراشات بقبعاتهم
 من الازاهير لمذبح العذراء ثم يعود الى المنزل مهشم اليدين والرجلين والقنباز،
 امه حالاً وتغير ملابسها وهي تؤنبه مرة وتصفعه مرات على طيشه المستمر.
 وفق مرة ان رأى امين «بغلاً مربوطاً بشجرة امام الباب فحدثته نفسه
 ، دنا من البغل وفك رسته ثم صعد الى الخافه ومنها الى ظهره، مشى

I am in love with you
But I'm not
sane so

البغل متباطئاً ، متحققاً امره فقتل الصغير الرسن ففهم ذو الاربعة المذكور معنى ذلك وراح يحب ثم يعدو فتقلقل الفارس الصغير وهوى الى الارض وبيننا هو وبين الارض وجلال البغل رآه احسد الجيران وهرع اليه فلمه وحمله دامى الرأس الى امه » (١)

وتعصف رياح الشتاء فتتربع العائلة وجيرانها حول الموقد في الليالي السود ويجلس الامين على « شطيح » صغير ينصت بامعان الى نوادر جحا ترويها جدته العجوز او الى قصة الزير يقرأ بعض فصولها مترجماً للعم بو مخايل :
(يقول الزير بو ليلي الملهل وقلب الزير قاسي لا يلينا)
وتستمر قراءة القصة او رواية النادرة الى ساعة متأخرة من الليل والسامعون يهزجون ويقهقهون وامين يصغي معجباً فرحاً خلي البال .

ولما بلغ الفتى عامه الثامن ، ارسله ابوه الى كاهن الرعية مع اخته سعدى ليتعلما
الانجليزية ومزامير داود . . .

على مقعد كسيح ، تحت زيتونة قديمة في ساحة كنيسة مار مارون كان يجلس
الاب مرقس يلوح بقضيب في يمينه يهدد الكسالى ويعبث بلحيته في اليسار ، وهو
يتبجحاً متثائباً « عند سعد ورد » والاولاد حوله على الحصيرة يرددون قوله كالصدى
ذاهلين خائفين وقد ملوا ما يسمعون .

لكن هذه المدرسة لم ترق طويلاً ذوي الامين وقد توسموا فيه النجاسة
والاجتهاد ، فنقلوه الى مدرسة اخرى في جوارهم يديرها نعموم المكرزل (٢) درس
فيها مبادئ العربية والفرنسية خلال عامين وقد عني به المدرس في اثنائها عناية
خاصة لما لاحظ فيه من ذكاء ورغبة نادرين .

(١) الصبي المطوق ، من كتاب قلب لبنان - المخطوط -

(٢) منشىء الهدى النيو يوركية فيما بعد

حدث اذ ذاك ان مر قنصل فرنسة بعين عار في طريقه الى بكفيا ، فلحق المعلم اميناً خطبة فرنسية وجيزة القساها هناك مرحباً باسم المدرسة ادهشت جماعات السامعين فاعجب القنصل بجرأته ومنحه مكافأة جميلة وعرض على الوالد ان يعلم الخطيب الصغير في باريس على نفقة الحكومة الفرنسية ، لكننا الام لم تشأ ان يفارقها ولدها الحبيب ...

كان يعود امين من المدرسة مساء فيحمل كتابه ويذهب الى الوادي حيث يدرس امثولته في هداة الطبيعة وقد صرف كل حيويته الى الاجتهاد ثم يعود الى البيت فيسهر على نور السراج الضئيل يطالع « الاجرومية » او يحل مسألة حسابية صعبة ، متعظاً بقول ابيه : الدارس غلب الفارس ، تنهأ امه عن انكبابه هذا خوف ان يضعف بصره فلا يبالي رغم احترامه اياها . ان انفته الفطرية ابت عليه الا ان يسير دائماً في الطبيعة ، فكان مثار اعجاب عارفيه يتحدثون بامره بدهشة واحترام « ما البقية في قراءة الرسائل والسنكسار بالكنيسة انه لا يتلعم بكلمة وما امهره في كتابة المكاتب واجمل خطه » وهو الى ذلك يمشي الى الامام والايمان بالمستقبل اللامع يملأ نفسه .

٣

قد يكون حب المغامرات وركوب الاسفار من طبيعة اللبناني ، انه قلق في بلاده يضيق محيطها عن طموحه فيولي وجهه شطر المهجر تنهياً له فيه اسباب الصعود الى العلاء لا يعاب بالمصاعب ولا يبالي بالاعطال .

فكر الريحاني في غده حائراً بما يشتغل ايتجر بالحرير مع ابيه وتجارة الحرير تنذر بالكساد ام ينصرف الى الزراعة ويقنع بجزة اليومي شأن العامة من ابناء قومه . ولماذا لا يهجر الوادي ويسافر الى اميركة مع عمه عبده واستاذ بالامس نعوام المكرزل المزمعين على الرحيل وكثيراً ما اثرى اللبنانيون ولمع اسمهم في ذلك

القطر الفسيح . . .

فكرة راودت الريحاني الفتى عن نفسه فتدبرها بامعان وراح يراجع التاريخ والجغرافية ويستطلع احوال اميركة بفضل غريب وهو لم يكن يعرف عنها غير ما رآه ليلة عيد مار مارون في «صندوق التفرجة» من خزعبلات والاعيب .

ونمت الفكرة سريعاً في ذهنه حتى كادت تملي عليه عزمه النهائي لو لم يكن في السفر هجر ذويه الى ان يشاء الله ، فتردد مدة ثم اذعن تحت تأثير عمه وقد كان يكرر عليه دائماً قوله : « سافر معي يا امين فاما ان تعود غنياً وافر الجاه واما ان تموت هناك ، بثست عيشة خاملة في وسط وضيع » .

وعلى اول باخرة رست في ميناء بيروت ، البحر الثلاثة عبده ونعوم وامين الى اميركة يشبعون نهمهم الى الثروة والمجد ، درعهم ثقة بالنفس لا تقهر وسيفهم عزيمة ماضية لا تعرف الكلل .

من بيروت الى مرسيليا الى نيويورك ، طال سفر الامين حتى جاوز الشهرين وهو يعاني صبراً احوال الاوقيانس الهائجة . ان احلامه المغرية هونت عليه مصاعب الزمان .

واخيراً ، هوذا تمثال الحرية ! هذه هي القارة الجديدة وتلك هي نيويورك مدينة الغرائب والعجائب دورها تنطح السحاب « والوف من مداخنها تنفث في وجه السماء روحها الغازي » آلات وسرعة واحجام ودواليب وانواع من البشر من كل بلد وكل جنس وسعي الى الثروة لا يهدأ ولا يمل . . . مظاهر ادهشت ابن الفريكة الغريب الساذج وعلمته ان في العالم غير الآب مرقس والشيخ اسعد والكرخانة والعنزة الكحلاء . . .

وفي نيويورك ، ادخل عبده الريحاني ابن اخيه اميناً مدرسة راهبات المحبة في نيويورك ليتعلم الانكليزية فيمسي قادراً على ان يساعده في العمل التجاري . ولم ينقض العام الاول حتى اقبل اخوه فارس واشترك في تجارته ، فاضطر امين الى

ان يغادر المدرسة ليقوم بوظيفة الكاتب عند عمه وابيه وكان قد الم قليلاً باللفة الانكليزية فراح يدير المراسلات وينظم الحسابات بنشاط بليغ ليوفر شيئاً من الوقت يطالع فيه بعض منتخبات مفسرة من اعلام الادب العالمي كان قد بدأ يتذوقها في المدرسة ، حتى اذا اعياء التعب العقلي اتجه الى النهر يختبئ في احد منعطفاته بصيد السراطين ويبتاع بثمنها الكتب الانكليزية القريبة المأخذ وقد كان آل الريجاني يقيمون ذلك العهد بقبو مظلم تحت مستوى شارع وشنطون تغمره المياه في الشتاء من كل جانب فيقضي امين ساعة وساعتين ينتشلها بالدلو الى ان تنهك قواه فينام وهو يرتجف من البرد وفي صدره نقمة متأججة على « اولئك المتكئين على وسائد الريش المتسربلين بالحز والحرير » .

وينمو ولع الامين بالدرس يوماً فيوماً ويزداد تعلقه بصورة خاصة بشكسبير وفولثير ويبرون وروسو فيرغب في اقفاء خطاهم في غده ولا غرو فقد وجد لديهم كل ما يسمو اليه امثاله الناشئون من فعالية وثورة وانطلاقاً بيد انه كان تاعساً معدماً حينذاك لا ينتهي من معالجة الارقام في نهاره الا لينكب على الدرس في ليله ويقوم بتنشيف المسكن فخطر له ان يخرج على هذا الاستمرار المرهق الذي ضيق عليه انفاسه وولد فيه القنوط فاخذ يتعرف الى شبان الجوار يتناسى نفسه جيناً في مزاحهم ومسامراتهم فعقبت الخطوة الاولى خطوات واذا الريجاني المنكمش على ذاته يغدو بين ليلة وضحاها من رواد الملاهي يسكر ويضطرب مجارياً رفاقه يبنغي تخدير شعوره الباطني ليذهل عما هو فيه من ضائقة معنوية ومادية . ولا تلبث البيئة الالهية ان تؤثر تأثيراً حاسماً على الشاب البائس الطري العود وتقوبله حسب اوضاعها ، وتتفتح عليه عيون ذويه فيحقق ابوه عليه ويهدده بالطرد اذا استرسل في مجونه وجاوز الساعة العاشرة في سهراته فكان يمتعض امين في قرارته ويصعد الزفرات دماً فوق الحدة كلما عاد الى نفسه وفكر ملياً بواقعه الاليم ولكنه كان اعجز من ان يقاوم دفعة واحدة طغيان البيئة والعادة الذي كانت تغذيه رغبة الانفلات من مكبلات وضعه الحرج ، بل كان يستسلم مرة ويصمد مرة واتفق ذات يوم ان عاد من سهرته بعد منتصف الليل فطرق باب منزله طرقة وطرقات لكنه لم يسمع

جواباً اللهم الا صوت ابيه يرتفع من الداخل ساخطاً : «ارجع من حيث اتيت» .
فانقبضت نفسه وجعل يصغي الى رجاء امه تلتبس العفو عنه حتى فتح الباب اخيراً
واذن له ابوه ان يبيت ليلته في المنزل على ان يغادره عند الصباح ولا يعود اليه .

قضى امين ليلته هذه فريسة الكتابة لا يهدأ روعه ولا يستقر على رأي ،
يستعرض ماضيه يوماً يوماً ويفكر في عمل مستقل يناسب ذوقه ويؤمن له الرغيف
فخطرت على باله في فترة اليأس تلك فكرة التمثيل وقد كان رواجه مشجعاً
ذلك الحين ؛ فما ان بزغ الفجر حتى حمل امته في حقيبة صغيرة وسار خافض
الرأس دافع العين يجتاز شوارع المدينة قاصداً هنري دجويت الممثل المعروف
الذي طالما تحدثت المجالس ببراعته المسلكية .

وصل الى الدار فانتظر بعض ساعات في صحنها يتمثل ككيفيات المقابلة يهيء
الاسئلة ويتكهن عن الجواب مستبشراً مرة وقانطاً أخرى حتى اذن له الممثل فدخل
المكتب عرف بنفسه وطلب ان يلتحق بجوقة دجويت السيارة كمتدرج ، فقم له ما
اراد . . . واذا هو في عامه السابع عشر يحبب انحاء اميركة يتوقع شهرة سريعة
تثار من قضائه .

اشترك في تمثيل هملت وريكاردوس الثالث مع هنري دجويت والسيدة روز
اتنغ ووليام ارون وتوماس كولمان ، فابدى مرونة في الاقتباس ودقة في الملاحظة
اكسبته اعجاب رفاقه الممثلين .

وهناك تأصلت فيه عادة اللهو الماجن تأصلاً غلب على ارادته المستضعفة وغدت
لديه حاجة لا تقاوم فاطلق لشهواته اللعنان في ذلك الجو الموبؤ ، حيث الملدات
مغرية مغوية بعيداً عن رقابة ابيه الصارمة واقاويل عارفيه وفي مأمن من
تبكيت ضميره وقد اخرسته ثورة الاعصاب . . . سكرة متواصلة لم يكن يصحو
منها الا ليراسل امه ويخبرها مفصلاً بجميع تنقلاته وانتصاراته بغية اكتساب
عطفها ونوالها فتجيبه بدورها وهي تلج في طلب رجوعه الى المنزل واستغفار
ابيه .

لائم الفن التمثيلي ، وما يتيح من حرية للعابثين مزاج الفتي الشاعر ، فوطد
 العزيمة على الماضي فيه الى النهاية ، ولكن ! هيئات ان تحقق الايام احلام الشباب
 افلست الجوقة عقيب احدى حفلاتها في كنستس سيتي غربي الولايات المتحدة
 حيث مثلت رواية بندكت ارنولد الحائن المعروف في تاريخ اميركة فاضطر « الابن
 الشاطر » الى ان يعود الى ابيه نادماً تائباً يلتبس رضاء بعد سكرة دامت ثلاثة
 اشهر ، فاستأنف العمل في المحل التجاري والمطالعة في الليل وقد عول على ان
 يجعد ماضيه المضطرب ، يقطع كل صلاته به وينظم حياة جديدة مستقرة مثمرة
 كما عول على درس الحقوق في اوقات الفراغ .

وهكذا انقطع الممثل الحائب الى مدرسة ليلية جاحظ العينين سقيم الجسد
 كبير التفاؤل يتيها لامتحان الحقوق فجاره بنجاح سنة ١٨٩٨ ودخل الجامعة
 النيويوركية تفعمه الثقة وهو يعتقد ان ابواب النعيم فتحت مصاريعها امامه ولكن
 لم تطل به الحال حتى بدد الواقع اوهام خياله فاذا عالم الحقوق لا يختلف جفافاً
 وقحطاً عن عالم اليرد والفاتورة الذي حاول التخلص منه فتملكته سويداء
 القنوط وبدأ يشعر من جديد بوحشة الغريب في بيئته المنزلية التي لا يصله
 بها اي تفاهم روحي او تجانس في الامزجة . طالب علم شاعر مقاييسه المثل
 العليا في الحرية والجمال بين تجار من الطراز القديم يدأبون على جمع السنس
 والدولار ولا يهتمون لغيرها من امور الحياة . فكان اذا مرت به فترات كآبة
 شديدة فعمد الى كتابه او الى قلمه بدون خواطره الشاردة ويرسل بعضها الى
جريدة الهدى التي كانت تصدر في فيلادلفيا يومذاك ، مقالات صغيرة فيها نزع
 الشباب ، لغتها ركيكة لا تعرف للنحو اصولاً ولا للصرف صيغة يعنيه التعبير
 في العربية فيستعين بانكليزيته وهناك في المطبعة كان محررو
 الجريدة يهذبون عبارته ويصححون التراكيب . ولكم تشوق صاحبنا حينذاك
 الى الافصاح عما تلجلج في صميمه في مؤلف مستقل فخاته امكانياته الكتابية
 وتمرر قائلاً : « يروى عن بعض الكتاب والشعراء انهم الفوا الكتب وهم احدث
 وانا قد بلغت الثانية والعشرين ولم اكتب مجلداً » .

انه المؤلف الشاعر بدأ يستيقظ في الربيعاني بعد ارتداده عن الضلال بحمله على تنمية مواهبه العقلية والاستفادة من وقته اقصى المستطاع ويصرفه الى عالم داخلي اغنى وافعل من العالم الذي طالما بذل فيه حيوية صباه .

٤

ارتدع امين عن طيشه المستحكم ونقم على ماض عقيم لم يفده شيئا وجعل يتبها للعمل الجدي بعد ان حان الاوان ليحقق ذلك الحلم الادبي البعيد الذي تمكن منه وهو يطالع محركي عقول الاجيال فتولدت لديه رغبة ملحة الى التفتيش عن يشعر شعوره ويشاطره اساء عندما يضمنه العمل الفكري ، فاختر نخبة من المهاجرين اللبنانيين والسوريين اخضهم امين الغريب ، الامير يوسف ابو اللمع ، سليم سر كيس نجيب دياب ، الياس يعقوب انطون ، وديع الباحوط ، سليم كسباني ودادود فليحان يتصل بهم كلما عرض له امر فيتشاكون فيما بينهم ما يعانونه من غرابة المحيط المادي الذي يعيشون فيه ، ويتعاونون على حل مشاكل يومهم وتهيئة غدهم .

اما الهوى مروض الشباب فلم يعد له شأن يذكر في توجيه حياته كمن قبل وقد سخره لخدمة طموحه الفكري فتحول ولعه بارتداد الاندية المشبوهة الى مجالسة الادباء والفنانين ساعات فراغه ، يتذوق احاديثهم ويحاول السير على غرارهم بيد انه وهو حديث نعمة في هذا الحقل كان يشعر بعجز صارخ عن مجاراة اولئك الموهوبين فيشن كبرياؤه وتثور عزة نفسه فيعمل صامتاً على استكمال شخصيته لا يعبأ بمتاعب الجهاد . وقد كان شعوره بقصوره هذا اشد حافز له على تقدمه المطرد نحو العلاء .

كان يرجع عادة من محله التجاري الى المنزل عند الساعة السادسة فينكب على مطالعة الجدية في وحدة مطلقة وكان يتم يومئذ بنوع خاص برينان وتين وكرليل

ودروين وفولتير وروسو وهيوم وقد كانوا اسياذ الاسواق الفكرية هنالك فيدون
ملاحظاته بصدهم على هامش الكتاب ولم تكن تخلو غالباً من الاعجاب البليغ
بطريقة افناعهم اللينة المخدرة . ولما كانت حالة ذويه المالية لا تزال متقلقلة بقي امين
في المنزل القديم وقد ادخل عليه بعض تصليحات منعت تسرب الماء اليه ولكنها لم
تصد عنه تيار الرطوبة الذي تغلغل تأثيرها في رثته وقد اضعف بنيته
الجهاد العقلي المتواصل والسهر المفرط ، فذبلت نضارة وجهه واخذت تجف
حيويته يوماً فيوماً فاسار عليه الطبيب بالعودة الى لبنان ليستشفي بطبيعته الهادئة
وهوائه المبرى .

عاد الامين الى لبنان يائساً عليلاً فقير الحال بعد ان كان يحلم بالرجوع ثرياً
حليفه الجاه . لقد اراد ان يجعل القدر مطية لاحلامه يسخره كيف شاء فجمع به
هذا القدر الحرون واذاقه بالجفاء الشامت مرارة الخذلان .
وصل الى بيروت في اوئل صيف سنة ١٨٩٨ فاقام في بيت جدته سعدى
الطبيبة المجبرة في - قرية الشاوية - يعب انفس الوادي السليمة ويسر الى الطبيعة
بآلام خيبته . فلم يلبث ان تعافى في ظلال الراحة الساكنة واسترد حيويته
قتلاآت آمال امسه امام عينيه من جديد .

اتيح للامين في هذه البلاد ان يطلع على تأخرها الاجتماعي الفاضح فساء جمود
اهلها وتقاعسهم عن العمل التقدمي وامضه تسكهم بتقاليد عقيمة تلجم رقيهم ولا
غرو فقد ترعرع في الولايات المتحدة موطن الحرية الشاملة والتقدم المستمر وتعود
التساهل والتجدد الجريء فولد فيه التفاوت بين البيئتين نقمة جاحجة على الرجعية
والتحجر حمله على ان يعلن ثورته على التقليد والتحول وينبث المبادئ الاجتماعية
الحررة الراقية التي اعتنقها وعاشها في العالم الجديد فعول عن درس العربية لغة
البلاد ليحقق مبتغاه .

دخل المدرسة اللبنانية في - قرنة شوان - يعلم الانكليزية تحصيلاً لعيشه ويتعلم العربية (١) في وقت معاً فوقع نظره هنالك على ديوان المعري ودرسه باهتمام ، كأنما لامت مزاجه الفطري تلك النزعة البادية لدى الشاعر الى الشك والتمرد والاستقراء والزهد فكان يتأبط ديوانه كل مساء ويتجه الى غابة تشرف على الساقية الفاصلة بين الشاوية وبيت شباب وهنالك على صخرة ملساء يظلمها الصنوبر الوارف الشامخ كانت يجلس امين الفتى المتأمرئ ، النحيل الجسم الانيق الهندام المسدل الشعر ، الحليق الشارين وقد ارتدى قبعة مخملية عريضة الاطراف وحمل نظارتين مذهبتى الاطار يتكئ حيناً على ذراعه اليمنى وحيناً يرتقي على مرفقة مستديرة وكتابه يضطرب بين يديه .

لقد اوحى اليه الشغف المفرط بلزوميات ابي العلاء ان يتوجها نظماً الى لغة الانكليز ليعرف الغربين بفيلسوف المعرفة وعسى يتسم له الزمان فيذيع صيته في العالم الانكلوسكسوني وبملاً الفراغ السحيق في نفسه ا ولم يشتهر من قبل الاديب الارلندي ادوارد فيتزجيرالد عندما ترجم رباعيات الخيام ؟؟ فما الذي يعوقه هو اذن عن اقتفاء آثاره وعزيمته لا تعرف الحور .

٥

ازدادت الفكرة اختاراً في ذهن الامين يوماً فيوماً حتى اذا تماثل من علته في خريف سنة ١٨٩٩ سافر للمرة الثانية الى اميركة يحمل «ابا العلاء» وهنا تنتهي المرحلة الاولى من حياة اديبنا ، مرحلة دراسة وسفر وخيبة ورجاء واختبار هام خلاها متردداً يفتش عن طريقه فثأت شخصيته الادبية متأثرة بعوامل شتى ، مطالعاته الكثيرة المتنوعة من جهة وقد فتحت امامه آفاق امكانيات رحبية فتألم مع شكسبير لآلم الانسانية الغائصة في اهوائها وهلل معه في معرض المثالية والوفاء

واعجب ببطولة بيرون وسمو شاعريته كما احس مرارة روسو وتعلقه بالطبيعة
وثورته على المجتمع في سبيل المساواة وحشد دعوة فولتير الى التساهل الديني مأخوذاً
بتهمكه اللاذع وتلقى تيار العالومية والتطورية وشعر بمرارة المعري ونقمة على
المخاتلين المداهنين ، وتناقض البيهتين اللتين آتاه من جهة ثانية ، وادي الفريكة
الوادع حيث يسود التعصب والتحجر والتقليد ونيويورك مدينة الغرائب والعجائب
الصاخبة وما بلغه من رقي وحضارة وتساهل في حقول الدين والاجتماع .

بيد ان هذه العوامل وان فعالة الاثر لم تكن كافية وحدها لتخلق الربحاني
الاديب المصلح لو لم تكن لديه نزعة فطرية قوية الى بلوغ الحقيقة الى العمل
للانساني المجرد غلظتها صدمة الحيات المتوالية .

وها كه يروي الآن باختصار بعض ما اثر في تشكيل نشأته قال :

« تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميري بنفسه .
رشت في نيويورك الجلام تاو جام من العنوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألئ
وما يمازجه من الخوف والاعجاب .

غدوت بعد عشر سنين في اميركة معجباً بنشاط الشعب الاميري وبحريته في
الفكر والقول والعمل خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل
الحياة الدنيا .

ونسيت فرنسا الا في آدابها تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وترددت في مضار
الحياة ، صرفتني عن حقائق الوجود المادية وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق
المعنوية ... ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في
امور كثيرة اخلاقية واجتماعية ارقى من الشعب الاميري واحب الى من كان مثلي
تأثيرات كثيرة متباينة تفاعلت في ذاتية الرجل فكان لها انعكاسات بليغة في
تحضير انتاجه الادبي وتكييف سنيه المقبلة .

العرش الثاني

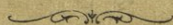
اديب ينحمر وينحمر

لنحمر على الاضطهاد ولنكن كوكوس الحب التي تحول
ما يصب فيها من سم زعاف ياسا شافياً

- انا تول فرانس -

الحكيم من صار الى غرضه دون ان يلوي على شيء مما حوله من
اشواك الضفائن والاحتماد ومن اشباح اللوئم والفساد

- الزيماني -



عاد

وصل الريحاني الى القارة الجديدة وهو على اشد ما يكون استياء من حالة بلاده
التي كانت مسرح التنابذ العنصري والتعلق بالتقاليد ، فتولدت في ذهنه فكرة
اصلاح عميق لا يتم الا بالثورة الجارفة تشمل الروح والفكر والمادة كالثورة
الفرنسية . وكانت الحال في سوريا ولبنان كثيرة الشبه آنذاك بالحال التي كانت
عليها فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فاوحى اليه طموح الشباب ان يلعب دور فولتير في

عصره يقضي على الرجعية البالية ويشيء على انقاضها حضارة عصرية راقية .

ولما كان يعتقد ان اسباب الانحطاط الاجتماعي تنحصر كلها في التعصب الطائفي والاستسلام للجهل عزم على محاربة هاتين الآتين في اوساط المهاجرين اولا بكل ما اوتي من جرأة ورباطة جأش فكان اول عمل اتاه في هذا السبيل باشترأكه العملي في نادي جمعية الشباب الماروني في نيويورك وكانت تضم بين اعضائها يومذاك شكري رحيم ، امين الغريب ونجيب دياب برئاسة الامير يوسف عبد الحميد شهاب .

اعتادت هذه الجمعية ان تنظم حفلة سنوية ليلة عيد مار مارون في ٩ شباط تدعو اليها الجالية اللبنانية والسورية على اختلاف مذاهبها ، فتشرب الانخاب وتلقى الخطب الاجتماعية تعزيزاً لتقارب المهاجرين وقد كلف الامين تلك السنة ، سنة ١٩٠٠ ان يهيئ خطبة يفتتح بها الحفلة ، فاعتبط لذلك واغتم الفرصة ليهاجم العصبية المذهبية التي خبر عواقبها الهدامة في بلاده وينادي بالتساهل الديني الصريح فعلم بالامر بعض الكهنة وبادروا توأ الى الريحاني الاب يسألونه ان يؤدب فتاه وقد اقنعوه بان خطاباً هذا شأنه طعنة حادة في صميم الدين . نبح الساعوث في سعيهم وارغم الوالد ولده على تمزيق خطابه فتوسط للحال انصار الامين بدورهم لدى ابيه وصوروا له المستقبل الزاهر الذي يرتقب اميناً فيما لو تفرغ على الخطابة واشتهر فانزعوا منه الصفع والرضى بعد مداورات طويلة شتى . وفي تلك الليلة التاريخية وقف امين يلقي خطبته الاولى في العربية فاشار في مستهلها الى غايته يبتغي جس النبض حتى اذا دوى التصفيق في القاعة وعلا الهتاف ارتفع صوته متوجرجاً يقول : « تصفقون اذن اتكلم » ولفظ كلمته في التساهل الديني وفي القضاء على التعصب بلهجة الواثق المؤمن بقوله فانقسمت جماعات الحاضرين له وعليه ، وعممت الفوضى المكان فانبرى الحور اسقف يوسف يربك يرد في اثناء الجلسة مقرعاً مندداً لاعناً وتدخلت الشرطة لتحفظ الامن وانطلقت اللسن تلهج بذكر الامين المحرر ، فكانت الصدمة الاولى بينه وبين رجال الدين وكانت جرثومة المحالفة الثلاثية لديه . اما الخطاب نفسه فمحوره طعن حاد بالتعصب الديني ودعوة الى احترام

اديان الغير سعيًا للتآخي في بنوة الوطن . لهجته جريئة صريحة غلب عليها طابع الهوس ، هوس الشباب المشبع بروح فولتير وهوبس وابطال الثورة الفرنسية الطامح الى فرض مشيئته الجموح . وبعد مضي سنة على القاء هذا الخطاب نشرته جريدة الهدى بين قرائها فكان بليغ الوقع في اوساط المغتربين في اميركا تناوله معظم صحفهم بالثناء مجذأً لبذ التعصب شرط الا يؤدي الى فتور العقيدة والى محاربة الدين . فتقويت ثقة الامين بنفسه وازدادت رغبته في اداء رسالة التجدد . لكننا المال اعصاب الجهاد لم يكن وفيراً لديه فاضطر الى ان يواصل العمل التجاري مع ابيه ليندخر المادة اللازمة لتحقيق اهدافه وهو يعيش مستقبلاً البعيد في عالم التصور .

هنالك في شارع برودواي حيث « يزدهم بائعو الحضر وصبيان الازقة وتكثر المناظر القذرة والنارجيلات وطاولات النرد والشوارب السود » كان يجلس امين وراء حاجز خشبي قرب طاولة ضيقة عرجاء يضع منهجاً لحياته المقبلة وهو لا يبالي رضي الزبائن ام غضبوا ، لقد احب فالستاف اكثر من جميع الرجال السمان الذين كانوا يجيئون لبيعشوا في التجارة والاشغال . (١)

واقع اليم جرحه في صميم كبرائه ، حاول التملص منه فراح يدرس اصول الموسيقى والتصوير لينطلق مع روعة الفن الى فضاء الطمأنينة والانخفاف ولكن وقته الضيق لم يكن ليتسع لجميع اعماله ودروسه وعلاقاته المدنية ، فكان عليه ان ينقطع عن المجتمع ، ينطوي على نفسه يدرس ويكتب ويعمل في وحدة النساك « قد اعتزلت عن معارفي وعن الناس تماماً لانني رأيت ذلك موافقاً لاشغالي العقلية وبعد ان سافرت والدتي واصبحت انا مع شقيقاتي واخي الصغير في البيت وضعت

قانوناً للزوار وجعلت لهم يوماً مخصوصاً اجرد نفسي به لاستقبالهم والقي دروسي واعمالى جانباً في ذلك النهار .

«انا الآن تاجر او بالحري مدير لاشغال والذي اثناء تغييه غير اتي اعود الى البيت الساعة الخامسة مساء وادرس ما استطعت من ذاك الوقت الى منتصف الليل . احياناً يأخذني النعس فأطلب النوم في غير وقته فاضطر ان استخدم الوسائط الفعالة المنبهة لتبقيني نشيطاً وصبوراً . ومن هذه الوسائط جربت القهوة ثم الشاي ثم التدخين مع الحشيش ثم سلكت مسلك ابن سينا واخذت قليلاً من الحُمرة (الوسكي) كل ليلة . غير ان هذه الاشياء اضرّت بي اخيراً واثرت في اعصابي فصرت سريع التهيج وكثير الزعل وكنت اذا وبحت احدى شقيقتي او اخي وجاوبوني استشاط غضباً . وبعد مدة تأملت في حالتي هذه وعرفت سبب تصرفي فانقطعت عن هذه المنبهات واعتضت عنها بشرطة مبلولة في الماء اتعصب بها في الليل حينما اكون مشغلاً فتبقيني واعياً ونشطاً .

« ... افكر في امور كثيرة واعزم على تأليف الكتب وكتابة الرسائل . ولكن لحد الآن لم اتم منها شيئاً . نعم يجب ان اثبت على عزمي . قد انتهيت مؤخراً من «المخالفة الثلاثية في في المملكة الحيوانية بين البغل والحصان والحمار» ولكن سوف لا اطبعها قبل ان اصير قادراً على تصليح لغتها بنفسي ، فيجب علي اذن ان اتم الامور التالية في السنتين القادمتين من ١٩٠١ الى ١٩٠٣ .

(١) درس اللغة العربية: بحث المطالب ومطالعة ابن خلدون ومراجعة حضارة الاسلام ونهج البلاغة والحري والدرر والفرر ومطالعة تاريخ مصر لزبدان وتكميل قراءة التوراة .

(٢) مراجعة علم الفيزيولوجيا وعلم الحيوان والنبات ودرس السيكلوجيا والجيولوجيا وقراءة هذه الكتب :

Darwin's: Origin of species and descent of man

Huxley's : Man's place in nature

Spencer's : Data of Ethics

Allen's : Life of Darwin

Henri George's : Progress and poverty

(٣) دروس اللغة الفرنسية ومطالعة :

Voltaire's : Louis XIV

Rayons de l'aube

من اقوال تولوستوي :

Victor Hugo's Morceaux Choisis

Victor Hugo's Extraits (I)

في ١١ تموز سنة ١٩٠١ .

هذا هو البرنامج العملي الذي وضعه امين لنفسه ذلك العهد فطبقه بانتظام وثبات لا يمل ولا يتوانى مهما بلغت وطأة التعب عليه .

٢

لم يكن الريجاني ممن يسلمون جزماً بنظرية كيبينغ « الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا ابداً » بل كان يعتقد « انها لا تصح الا في مظاهر الاجتماع السطحية التي تزول عند احتكاكها من جهة بالحقائق الاولى الدائمة ومن جهة اخرى بالحقائق السامية الفنية » . لا تحاول ان يكون همزة وصل بينها ؛ ينقل الى الغربيين روحانية الشرقيين والى هؤلاء تقدم الاولين . فكان اول عمل قام به في هذا المعنى وضع نبذة عن تاريخ الثورة الفرنسية تناولت اسباب نشوبها واحوال خربتها من فولتير الى روسو الى روبسييه ثم نتائجها المعنوية والفكرية ، ذيلها بانتقاد فيه التهكم اللاذع لتأليف توماس كرليل في تاريخ تلك الثورة اخذ عليه فيه استرساله مع العاطفة قال : « ان كرليل يحكم على الحوادث بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى

(١) مذكرات امين الريجاني ونشرها اخوه البهت في كتابه - امين الريجاني -

الظروف التي نشأت عنها نفسه ولذلك لا نرى في كتابه الا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجاء ورتاء فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً في موكب المهزومين».

نشوت الهدى النيويوركية هذا الكتيب سنة ١٩٠٢ فلم ترج سوقه كما توقع امين ونعوم ولا غرابة فان ما كتب في هذا الباب لا يحصى عدا ان المؤلف لم يزل مجهولاً في اكثر الاوساط القارئة . وقد ابدى امين في بكر تأليفه هذا لباقة في التعليل وتفهماً للوقائع لا بأس بها لكنه اغفل نقاطاً جوهرية في بعض تحاليله جعلتها مبتورة شوهاء يتكلم مثلاً عن بواغث تلك الثورة فلا يذكر منها الا القريبة وهي في عرفه خدمة الدين والنساء والاشراف اما اثر القومية المستيقظة وهرم العهد القديم فلا يعيره اي اهتمام ، فضلاً عن انه لم يستطع ضبط شعوره في جميع المواقف فيجرد نقده عن كل تأثير عاطفي ، بل وقع في الخطأ الذي عابه على كارليل فكان في اغلب الاحيان خطيباً شاعراً اكثر منه مؤرخاً .

كانت الصدمة شديدة على الريحاني بعد كساد كتابه الاول ولكنه تمالك عن اليأس واستمر يكتب «الحائفة الثلاثية» في جو داخلي عابق بالنقمة والامتعاض. وفي ذلك العهد اتاحت له ظروف حياته ان يعايش العمال البائسين يشعرون شعورهم ويتألم معهم ، رآهم في المناجم تحت الارض وفي العنابر يصلون ليلهم بالنهار ويجاهدون الموت كل ساعة ورأى صغارهم يهيمون جوعاً على الطرق ، فتقرزت نفسه وثار الانسان فيه فانبرى يكتب في الصحف الانكليزية والعربية يطالب بانصافهم يصور شقاءهم بأسلوب حي مؤثر ويندد بتفاوت الطبقات وظلم المحتكرين وآفات التمدن الحديث « ما هي فضائل هذا التمدن المؤسس على الطمع وحب المال والاستئثار . التمدن الذي يسن ارباب المال شرائعه فينفذها سيطرة البورص ويبشر بها اصحاب المعامل وينشرها وزراء الحرية بالمدافع والمدرعات - الريحانيات -

انه الفتى المثالي الوفي لمبادئ الثورة الفرنسية يدافع عن الاخاء والحرية والمساواة بقلبه وقلمه وروحه وقد رآها كلمات فارغة تتاجر بها اللسان على غير طائل .

« دع الفيلسوف جانباً يا امين وقم بعمل مشر يطعمك خبزاً انك لم تهجر بلادك لتدرس وتكتب وتتأمل بل لتجمع ثروة تذكر فالذي يملك دولاراً يساوي دولاراً في هذه الايام . لقد طبعت كتابك الاول وعلقت عليه ما شئت من آمال فحسرت ما انفقت على طبعه وضاع املك . فهل اتعظت او ارتدعت ؟ » .

هذا مثل من العظات البليغة التي كان يسمعها امين من انسابه وجيرانه ، آنذاك فاكثرت نفسه وفارت انفته وشكا امره الى بعض خلانه الادباء فشجعوه على المضي في نشاطه مذكرين اياه باولئك العباقر الذين طالما فشلوا في بدء حياتهم ولاقوا الخذلان .

و كانه شعر يومئذ بضالة العمل الفردي بالنسبة الى المحيط فتترك برجه العاجي فخلف مع بعض اخوانه المهاجرين ثروة العشرة برئاسة الامير يوسف ابي اللع قصد التعاون في الحقل الادبي الاجتماعي الفسيح ، حتى اذا انجز « المخالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين الحصان والبغل والحصار » نشرها في اوائل سنة ١٩٠٣ وضمنها بعض الصور الهزلية . وهذا الكتاب ، محاورة رمزية جعلها على السن الحيوانات يعبر فيها الثعلب عن رأيه اي (المؤلف) فيعرض باعمال رجال الدين ونظرياتهم اللاهوتية مجرفاً اقوال المسيح ساخراً من عبادة الصور ومن صحة العجائب زاعماً انها تقاليد وسخافات عقيمة تشكل العقبة الكبرى في سبيل تقدم العلوم ، فيضطهد لانه يرى الحق كما هو لا كما تريده اهواء المتساجرين بالضماير اما السيد المسيح فيظهر بمظهر الاسد وقد شوه الكهان اقواله حسبما اوجت اليهم المصلحة الذاتية . ورب يوم يأتي يحرق فيه تيار العلم والتمدن هذه العقائد الدينية الباطلة في نظره فيتححر الناس من طغيان الاكليروس الويل « اما الحصان والبغل

والحمار فذهبوا الى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين وبينما هم سائرون ذات يوم على طريق السكة الحديدية اذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار والكهربائية والاختراعات ومر عليهم جميعاً فسحقهم سحقاً وتطايرت رؤوسهم وبقي اجسادهم في الجو وتشتت اعضاؤهم المتقطعة على طريق التمدن الحديث .

تلك هي باختصار آراء الريحاني في المحالفة الثلاثية سبكها في قالب هزئي لاذع لغته اقرب الى العامة منها الى الفصحى تعمداً قصداً لتكون قريبة من متناول الجميع . لقد حدث الامين الفتى القابل التأثر الضعيف الشخصية عوامل كثيرة على اتباع هذا المسلك الاباحي الوعر وعلى التورط في الاحاد اهمها عدا تأثير نعوم المكرزل (ناشر الكتاب) ونقمته على الاكليروس ، نهم شديد الى بلوغ الشهرة كيف كان سبيلها فحاول ان يكسر « مزراب العين » ليفسح مجالا للتحدث به . اما الافكار التي اوردها هنا فقد استمد معظمها من ادب آخر الجبل الخاضع لسيطرة رينان والعلومية وتأثير مادية كرليل وتطورية دروين ، اصف الى ذلك جوالبيته الاميركية العاقب ببخار المصانع وقرقعة المتكالبين .

ثار تأثير الاكليروس عامة واليسوعيين خاصة لدى ظهور المحالفة الثلاثية فنددوا باقوال الريحاني دفاعاً عن الايمان المسيحي الجريح ، فانحصر له بعض عارفيه واعتبروا كلامه دستوراً لهم وناصبه البعض الآخر العدا فكفروه ووجهوا اليه من ذمهم ما يوجه الى الكفرة المارقين وتداولت الايدي كثير هذا الكتاب في الوطن والمهجر فاعيد طبعه مرات واحرق مرات حتى اصبح الريحاني معروفاً في معظم الاوساط الادبية .

بيد ان صاحبنا كان مضطرباً حائراً في تلك الآونة ، وقد كثر مناوئوه وهاجمته اغلبية الصحف في الوطن والمهجر كما انبرى بعض رفاقه بالامس يردون

عليه داحضين اقواله (١) وجفاه آخرون . الا ان نقمة الاكليروس والمهاجرين لم تكن لتوهن عزيمته وهو الذي عاهد نفسه على ان «يقول كلمته ويمشي» بل جددت نشاطه في سبيل ما اعتقده صواباً ، فنشر المكاري والكاهن سنة ١٩٠٤ يكيل على الاكليروس سخطه ويقبح اعمال المتاجرين منهم باسم الدين المستخفين باقوال المسيح مصوراً بقلب قصصي فولتيري كيف يحولون المحبة الى بغض والرحمة الى جور . وهذا الكتاب اقرب الى المقال منه الى الاقصوصة . اثر صياني لا قيمة له كأنما خافت المحالفة الثلاثية عن تجسيم ثورته على الاكليروس فافرغ فيضه فيه . انه انتاج الفتوة الجهيض لا يمثل شيئاً من اديب الغد .

٤

حرف الريحاني وقتاً طويلاً في ترجمة الرباعيات ، يكتب وينقح ويراجع ثم يعرض على اخصائه حتى رضي عنها اخيراً وطبعها سنة ١٩٠٣ فقبولت بالاعجاب والاستحسان في الاوساط الاميركية ، قرظها عدد كبير من جرائدها وفضلها على رباعيات الحُمام المترجمة وقد بلغ شغف الانسة الفنانة ليلى ستوريكلند بعذوبة بعض مقطوعاتها ان وضعت لها الحاناً موسيقية مطابقة في كتيب خاص .

ولا بدع ان يوفق الريحاني في ترجمته تلك وقد كان يحيا ابا العلاء وهو يترجمه فلا ينقل صيغاً مخنطة جافة من لغة الى لغة بل روح ذلك الثائر وقد تبلورت خلال روحه الريحانية فابرز تلك الشخصية القوية تقريباً كما هي في اسلوب انكليزي متين السبك مرن العبارة . وقد اختار هذه الاشعار من لزوم ما لا يلزم وسقط الزند وضوء السقط ، وصدرها بمقدمة تناول فيها حياة المعري وتأثيره فقال : « اثار

(١) نذكر منهم عباس البجاني - رد على المحالفة الثلاثية - وامين الغريبي : ذلك الكتاب .

ابو العلاء حرب الاقلام على ما في عصره من شرور وابطال فحمل على الخرافات والاحاديث الموضوعة ونادى بضرورة الخُضوع لسلطان العقل والثورة على الاستبداد والظلم رافعاً حرية الضمير وسمو النفس فوق مطامع الحكام مبيناً معائب الرؤساء ديناً ودنيا « وبعد ان افاض في هذا الصدد قابل بينه وبين عمر الحيام فاعتبر الشاعر الفارسي تلميذاً لابن المعرة اخذ عنه معانيه كما اخذ فولتير معظم آرائه الحرة في الدين عن هوبس ولوك وبابل، والمعري في نظره لقريطوس الاسلام وديوجنس العرب وفولتير المشرق .

اما الرباعيات المترجمة فقد بلغ عددها مئة وستاً وعشرين . بيتان في الاصل حولاً بتصرف الى اربعة انكليزية نورد احداها هنا على سبيل المثال :

ونار ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رماد
لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

Fan thou the fire then behold the light
Fan thou but ashes and bemoon by sight
Call thou the living and they will respond
But whom thou callest are as dead as Night

لكن هذه الترجمة اذا نجحت في مجملها لم تخل بعض تفاصيلها من غموض وشذوذ عن الاصل ربما اقتضته اوضاع العروض وبررته حداثة المترجم . ومها يكن من امر فالشهرة التي حلم بها الامين بالامس تحققت له اليوم بعد المحالفة الثلاثية وترجمة الرباعيات ، فغداً كاتباً معروفاً تنشر له كبريات الجرائد العربية وبعض الانكليزية في اميركا ولا سيما الهدى ومرآة الغرب والاصلاح النيويوركي والبوكنم والفوروم ، فايسترت حاله سريعاً وتححرر من ربكة التجارة وقد توفي ابوه فكان يقيم تارة في نيويورك وطوراً في بروكلين في منزل عال زينت جدره صور غامبتا ووبستر وغلاستون ويتردد الى الاوساط البرجوازية والادبية هنالك ، فكان المحدث اللبق الهادي الاعصاب يحول في كل بحث وحوار، يبدي رأيه في الازياء والسينما والتشيل ويقول كلمته في الفنون والسياسة والعلوم وهو دائماً خفيف الروح لاذع التهكم .

كان يحاط بنوع خاص الادباء والفنانين اعضاء نادي الثريا الاميري ، يعقدون المجالس كل مدة ويتطرقون الى تيارات الفكر الحديث والوان الادب والفن . فلم يلبس ان لمع نجمه بينهم وعلا شأنه فاحيوا حفلة عامرة على شرفه سنة ٩٠٣ في فندق فاندوم (١) حضرها بين من حضر الشاعر الناصر ريتشارد لي جالين وبعد ان القى الرئيس كلمة وجيزة تناول فيها خصائص الريحاني دعاه الى منبر خاص وتوج رأسه باكليل من الغار ثم مهد له مجال الكلام فلقى خطبة انكليزية مقتضبة عن مزايا الادب العربي ومنزلة المعري في عالم الفلسفة فرضت اصغاء الحاضرين واحترامهم .

انها الاقدار الساهرة تضحك للامين بعد عبوس طويل فيرمقها حذراً متيقظاً باسمًا

قد لا يكون احياناً بين الصداقة والحب الا خطوة واحدة يجتازها المرء لاواعياً وهو مدفوع بعامل التقدير المطرد ورغبة الاستئثار .

نمت علاقات الريحاني مع احدي صديقاته الاميركيات الحسان نمواً بلغ به حد الهيام الجامح ففدا يتألم لفراقها ويئن اشتياقاً فيرسل الانين شعراً نابضاً باحساس مبهم جريح .

كانت تمر به ساعات وحشة سوداء يهيجها فيها حنين المهاجر الغريب الى ذويه ، ام امين وسعدى وادال ، الى صنين والوادي ، الى الاخوان والحلان ، فيلجأ الى قلمه ينظم الابيات والقصائد مترعة من صميمه ، يتلوها على رفاقه في سرراتهم الدورية فيتناقشون حولها ويتنادرون وقد نشر بعضها سنة ٩٠٤ في ديوانه المر

والريحان Myrtle And myrrh فجاءت صفحات حية من سجل شبابه . كشيء عن ثنانيا نفسه الفتية وما خالجه من الم الهجر وحرقة الشعور الكييت في

قابل

song!

طبع سائع جمع الى مبة الرومانطيقية واضطرابها بساطة الفريكة وروحانية الشرق.
وتشاء الاقدار ان تفجع الامين باحب الحلائق اليه تذهب حبيته للتزهر على نهر
الامازون ولا تعود فينقم على الحياة ومن فيها . بلعن ، لكنه اخفى ثورته هذه
وراء بسة شاحبة مصطنعة خوف شماتة عارفيه وعمد الى الشعر عزاء الياسين يحمله
شكواه وثورته ثم لم يلبث ان مزق قصائده تلك تحت احياء ارادته الحازمة فلم تنج
منها الا قصيدة واحدة - نفحة من لؤلؤة - ادرجها اولاً في جريدة المنار ثم نقحها
واعاد نشرها في الريجانيات هاك شيئاً منها على سبيل النموذج .

« يا ايته الساكنة قعر ذاك النهر القصي ، يا ايته الراقدة تحت تلك الامواج
الغريبة لا تجزعي ولا تخافي !

« انت اميرة اللؤلؤ واللؤلؤ هناك يلاقيك مرحباً .

« انت ملكة المرجان والمرجان يمدك منشداً .

« يا ايته الزنبقة المدفونة في مياه الغربة ، ليست الغربة بعدك بعيدة .

« وليس القعر دائماً رمز السقوط والحزن والبلاء .

« انت في غرقك ترتفعين وفي هبوطك ترتقين .

« وقد كنت بعيدة عني فادناك مني الموت فاصبحت حية في ذكر لا يموت .

« انت في مخيلتي تنيرنيها ، انت فيها شمس الحب والذكرى الى ان تقنى الخيلة .

« احببتك حباً روحياً ، وروحك لا تزال رفيقي ، على م الدمع اذن والحداد .

« ابعدتك الهجرة الاولى فادنتك الهجرة الثانية ، وانت الآن في افقة بحبيك

وفيها من اللؤلؤ والمرجان ما ينذر في نهر الامازان .



.. « اي منجل الزمان انت في الوجود حروجا ازاهرها من روح الله وهي التي تخرج

من قبل وستنور بعد ايامك وتبتسم دائماً لابتسامك .

« وانت من تلك الازاهر ايتها الروح اللطيفة الطاهرة كنت في حياتك الدنيا
محجة الافئدة المحبة وكعبة القلوب الصافية ، ولا تزالين كذلك .

« لا تزالين عندي اعجوبة البعد والزمان .

« كلما رأيت لؤلؤة اسألتها عنك .

« وكلما رأيت مرجانة ارى فمك واسمع كلماتك الدرية » .

ان هذه القصيدة وان غلبت فيها الصناعة على الطبع تظهر نفساً حائرة تنتحب
وتهدي ، انها زفرات متقطعة حاول وصلها متعملاً ، فاحقق ، وتوالت على الامين
المصائب والاشجان مرضت اخته سعدى بعد وفاة ابيه غرقت حبيبته وساءت
احواله الصحية فسئم العيش في البلاد الاميركية المضطربة « بين شعب لا يعرف معنى
السكينة والراحة ولا الجمال في بلاد فيها الحركة دائمة متواصلة بين قوم يأكلون
ماشين ويقرأون آكلين ويعدون النقود راكضين ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين
فحول وجهه الى مشرق الشمس ليقترّب من جمال الشرق الشعري وجماله الطبيعي
وجماله الروحي بل الالهي اي الجمال الابدي الدائم » .

اجل عاد امين الى لبنان تصحبه اخته سعدى المريضة يطلب بلسماً لقروح
في هوائه البليل « نفس الالهة بالذات » وطبيعته الرفيقة المضياف .

« اذا كانت اكتشافات العلم ونتائج تزيّد جسم الانسان نظافة وصحة وقوة
وسعادة فينبوع الجمال النفسي الساحر الذي لا ينضب معينه في الشرق لا يزال يمنح
النفس البشرية تلك الطمأنينة والتعزية التي تتوق دوماً اليها » - خالد -



مر الامين بمصر في طريقه الى لبنان حيث قضى شتاء كاملاً زار في اثنائه سمو
 الخديوي عباس حلمي واتصل بالشيخ محمد عبده وحافظ ابراهيم واحمد شوقي
 وفؤاد صروف وفارس نمر وسائر الادباء والزملاء السياسيين هنالك فتناولوا في
 مباحثاتهم احوال الشرق الاوسط الاجتماعية والسياسية ووسائل انعاشها.
 حتى اذا اقبل الربيع غادر وادي النيل الى واديه الى « الصومعة » يستأنف
 عمله في وحشة السكون . « العزلة هي دواء لمن سئمت نفسه من ملاذ هذا المجتمع
 وموبقاته من سروره وشروبه فيعود الى امه الطبيعة لتداويه بنور شمسها وعليل
 هوائها وشذا زياحينها وهي غداً لمن يخرج من الهيئة الاجتماعية والنفس نافرة
 من محيط هي غريبة فيه يعتزل الناس طالباً في الطبيعة الراحة التي لا يعرفها الناس
 التعزية التي قلما تعزي عامة البشر » (١) لقد تاق كثيراً عهد ذاك الى الاختلاء بنفسه
 القلقة يتنسم همسها في هدأة الغاب الاعزل بعد ان آلمته وحشية الانسان ودوخه
 عجيج محر كانه « على كتف الوادي وبالقرب من كروم اجداي نصبت خيامي
 فوق نهر الكلب ، وقبالة جبل صنين ، رفعت رايتي البيضاء عوضاً عن العلم
 الاحمر الذي وضعته في يدي احدي بنات الحرية في البلاد الاميركية . (١)

الا انه لم ينعم بتلك الطمأنينة التي ارادها في عزلته . وقد اشتدة دعاوة
 الاكليروس ضده عند وصوله الى لبنان وكثرت عنه الاقاويل في اوساط الجبل ، من
 زاعم انه راع بووتستانتى يستهدف تقويض الكتلكة ومن قائل انه دهري ينكر
 وجود الخالق عز وجل ومن معتقد انه مشعوذ مفسد يحتم الدين اضطهاده كيفما اتفق
 الحال فكان اذا شاء قضاء حاجة الجأ الى من كان يجهل اسمه في المناطق البعيدة كالشوير

مثلاً لان القرويين عارفيه المشربين بالدعاوة ضده كانوا يخشون الوقوع تحت طائلة الحرم الكنسي فيما لو خدموه. ولما توالى الشكاوى بحقه الى الكرسي البابوي في رومة والبطريك في بكر كي تلح باقصائه عن الجبل ، استدعاه ذات يوم اسقف الابرشية يستطلعه حقيقة الامر ، فادهشته صراحه الجرئية ووعيه الانساني وادرك ان محدثه مفكر حر يؤمن بالخالق في صميمه وهزأ بالشكليات . وبعد مقابلة جاوزت الساعة استأذن الرهباني بالذهاب وهو يقول : « احرمني اذا شئت يا سيدنا لانك اذا فعلت وقيتني زيارة الكثيرين من الطفيليين الذين يقلقون راحتي بهذرهم ويعبثون بوقتي » .

وبالفعل ، حرم امين نفسه عن الناس فعاش ، رهين قلمه و كتابه « في الصومعة » لا يغادرها الا لينسل الى الغاب عندما يعينه الجلوس « سعدت قليلاً وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست متشققاً هواء الاحراج المنعش فكاد يكون لنفسي صدى في حفيف الاوراق » لقد علمه صديقه المعري ان يستجير بعزلة الطبيعة ساعة تنهكه مشاحنات البشر وبليلة المجتمع فتدعه بمخاضها المنعش وتبدد سآمته . « عدت الى وطي طالباً فيه راحة العقل وراحة النفس وراحة الجسد طالباً في الطبيعة ومنها ما ينسي المرء عقله ونفسه وجسده... ولجأت كلني العلاء الى العزلة في قريتي هرباً من الحضارة ومتاعبها وشغفاً بالطبيعة وجمالها وجباً بالتأمل ولذاته » .

لم يعد الامين اليوم ذلك المتأمرک المجهول وقد تقدمته الشهرة الادبية وزادت في اتساعها نقمة الاكليروس ، او ذلك الفقير الحال وقد توافرت له ثروة تذكر فاذا كانت لا بد من عمل ايجابي يقوم به فالظروف سانحة مساعدة . ان الشرق الراجع في خمولة يفتح عينه للنور ، اليابان تنتصر في موكدن ، حزب تركيا الفتاة ينمو باطراد ، في مصر الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل والمجددون تلامذة الافغاني

ينفثون الحرية والثقة في صدور النشء الطامع وفي بيروت ودمشق وبغداد
تتنظم الاحزاب السرية الاستقلالية المختلفة ، نار تحت الرماد تنتظر نفاخاً يثيرها ،
هيا الى الواجب يا امين ، صوت دوى في اذن ضميره فلباه بانديفاع يكتب ويخطب
ويعمل ولا يمل « جرد نفسك ولو بضع ساعات عن اطمار الاجيال وتعال نوح معاً
ومتي وصلت الى كعبة الحقيقة وانت في مئزر الحج تجد هناك اثوابك الموروثة
واثواباً اخرى جديدة الى جانبها فاما انك تعود الى ما كنت عليه فلبس ما الفته
وتسير في سبيلك واما انك تعراض عنها بثوب ليس فخيماً ولكنه من الرقع
والفتوق سليم . - الريحانيات -

ذلك هو النداء الذي قدّمه الامين صريحاً عالياً الى قارئيه وسامعيه يدعو الى
الانعتاق من جهل واوهام قاتمة طالما شلت تقدمهم ويوجه شطر حضارة جديدة
طالباً ان « يحرر الانسان نفسه بنفسه عاملاً في الداخل قبل الخارج لتكون حريته
روحية اكثر منها مادية ، تكون صافية من الغش والحداع ، تكون اساساً للحياة
الحقيقية الشريفة لا شعلة نار لا ضرام اهواء النفس او طعمة لشهوات الجسد او
امتيازاً للسلب والتعدي . »

ولما لم يكن في لبنان ذلك العهد وسط موجه دافع يبذر الافكار التقدمية في
مواضعها ، راح يجمع شمل الادباء الاستقلاليين الذين كانت اتصل بهم بالمراسلة من
اميركة يرسمون خطة نظامية موحدة لعملهم ويخلقون تياراً فكرياً محرراً وهكذا
اصبحت « الصومعة » محجة المثقفين يقصدها بصورة مستمرة عشرات الادباء ولا سيما
داود مجاعص ، قسطنطين بني ، جرجي باز ، بترو باولي ، بشارة الحوري ، مصطفى
الغلاييني ، عبد الرحمن سلام ، الياس خليل شديد ، فيليكس فارس واحياناً محمد
كرد علي وشبلي الملاط . شباب طامح عطش الى التحرر يلتف حول الامين
ويعالجون معه امور الساعة وتطوراتها الممكنة في الجبل وبيروت ومختلف الولايات
ويدرسون الوسائل الفعالة لتنوير الشعب المستسلم لسنة المجهود الاقل ، حتى اذا
انقرط عقدهم راحوا يكتبون في صحفهم (١) ضاربين على وتر الكرامة الوطنية

(١) نذكر منها المنار ، البرق ، الوطن الصغير ، لسان الاتحاد والحرية .

وحرية الانسان مجسمين بصورة ناتئة الخطوط ذل العبودية وعواقب التحول محرضين على التحرر الناجز في المادة والذهن والروح .

انقلاب اجتماعي سياسي خطير يهيا وراء الستار تحت اشراف الامين . وقد بدأ يحس امكانياته . انها المرحلة الاولى من منهجه الاصلاحى شرعت تتحقق .

٦

تعود امين البساطة الانيقة في مسالكه فكان يعيش حسب الطريقة الاميركية المرحلة اللامبالية ، يقوم بجولات رياضية بين الحين والحين تطول غالباً فتبلغ به زحله او عاليه او الشويفات يرافقه فيها كلبه الصغير دوق جون . وهناك يزور اصحابه ويبيت ليلته ليعود في بكرة غده الى الفريكة حيث ينتظره القلم . فكان في رحلاته هذه يستلفت انظار العامة ويثير فضولهم فيضربون في مسارح خيالهم يستنبطون عنه التكهينات . وكيف لا يبدو لهؤلاء غريباً في زيه مستهجنأ في شكله شاب حليق الشاربين مصفف الشعر مسدوله (١) بلبس قبعه مخملية «وبنطلون وبالطو ابيضين يغطيها رداء اسود كجبة الكاهن» فيتحدثون بامره على التنور والعين وفي باحات الكنائس بدهشة واستغراب .

وفي ايام الشتاء كانت تقفر الفريكة وينقطع عن الامين اصحابه مرغمين ، فتتوب عنهم رسائل المودة يطلعونه فيها على مجرى امورهم ، يشكون احياناً ويتذمرون فيجيبهم بأسلوب خاص فيه الصراحة الرصينة والتجرد يؤنب ويعاتب ويشجع ويرشد دون ان يبدي تحفظاً او يراعي مجاملة كما يتضح لك وانت تقرأ رسالته التالية الى صديقه الحميم قسطنطين يني ، قال منها : «كن صبوراً ولا تيأس . الغم لا ينفع والسويداء اشد ضربة على النفس . وبدل ان تجلس ساعات وراسك

في الارض تحرك وارفع رأسك الى السماء . ولا ينفعك رأيي ولا نصيحتي ولا حي ولا رثائي ولا تنشيطي اذا كنت انت لا تربي في نفسك تلك العاطفة التي تغنيك عن حب الناس ومؤاساتهم . عاطفة الاستقلال والثقة بالنفس اذا تملك منك تملكاً شديداً ترفعك فوق غمك وتنصرك على بوارد الايام وصروف الدهر . ولا تنس ان تقرن الثقة بالنفس بالنشاط والنشاط بالبشاشة .

انا مثلك منيت بالسويداء وكاد يسومني اليأس في ماضي حياتي ، وكنت احفظ مذكرة اكتب فيها صباح كل يوم شكواي واذرف على صفحاتها دموعي ولكن ذلك قلما كان ينفعني لانني في تلك الايام لم افعل شيئاً وما تمكنت من العمل الا بعد ان مزقت مذكرتي وامسكت نفسي عن الشكوى والتأمل .

الصبر يا اخي الصبر فاي شيء يدوم . الواجب جميل والحرية جميلة والاستقلال اجمل ولكن لا تعجل . وفي وقت الشدة كن شديداً بل ادخر من نشاطك ايضاً للمستقبل .

قم بواجبك الآن نحو عائلتك ولكن لا تهمل نفسك انا لست من الذين يقولون في امارة الذات وجل ما يمكنك عمله الآن ان تستعد للمستقبل ان تتهيأ لدخول الكلية الكبرى في العالم لانكم كلكم في هذه البلاد لم توالوا في مدرسة الحياة الابتدائية .

فاستعد يا اخي قسطنطين وعد نفسك بمستقبل جميل . الاستقلال والثقة بالنفس والنشاط والبشاشة هذا هو دوائي لمثل ما يصيبك ويصيب الكثيرين .

ترسل بسيط جريء خلا من الحشو والتبخير ، انه الاختبار الواعي مازجته العاطفة الصادقة يلمان سطوره .

عندما كان امين يمل وحشته المطلقة في « الصومعة » كانت ينحدر الى الوادي يعب انفاسه العطرة ويناجي الطبيعة المضيف وقد علمه روسو ان يعود اليها كلما اعوزته السلوى البريئة . وهناك فوق مضيق نهر الكلب حيث سجل رعمسيس وسنحريب واسرحدون والنبني سلسلة انتصاراتهم كانت يقف واجماً متأملاً امام

رهبة الغاب وهيبة التاريخ يعيش بالذكرى صوته المرححة ويطلق لمخيلته العنان وحدث يوماً ان فاجئته مطرة شديدة وهو في قاع الوادي فهرول الى الدار هارباً وقد ارتسم في ذهنه مشهد الطبيعة العذراء تغتسل ، فاخرجه في مقاله الشهير - وادي الفريكة - بقالب واقعي دافق بالحياة والشعر اعيب عليه فيه تشبيه خشن لا يستسيغه الذوق السليم وارسله الى صديقيه صروف وغر في مصر فنشراه في المقتطف وبعثا اليه بخمس جنيهات كانت اولى نقود تروده من انتاج قلمه في الشرق فدعا اصدقاءه الى فندق « اللوكسمبرج » واقام لهم حفلة دعابة ودية حياء لتلك المناسبة السعيدة .

اخذ الشعور القومي يستيقظ في ذلك العهد لدى الناشئة المثقفة فبدأت تحس قصورها الاجتماعي والسياسي وتعي معطيات الحرية الصحيحة ، فتقيم الحفلات العامة في كل ظرف ملائم ، تلقى في اثنائها خطب شتى في السياسة والادب والاجتماع . وكثيراً ما شجع الرمحاني تلك المظاهر الوطنية ، فساهم في تنظيمها عملياً والقى الخطب كلما طلبت اليه . فكان اذا خطب تأججت عيناه ونور وجهه وثار لسانه حتى تخال ان كل ما فيه ومنه يتكلم وهو الى ذلك لا يعتمد الصيغ المخطط الرصيفة ولا الجملات المبذلة الجوفاء بل يستمد من وحي الساعة موضوعاً جديداً ينفذ منه الى الدعوة الاصلاحية التي يجاهد من اجلها . وهاك على سبيل المثال شيئاً من خطبة القاها سنة ١٩٠٥ في جمعية شمس البر البيروتية ناجى في مستهلها الشرق منبت المعجزات ثم استطرد الى الحرية ومعانيها قد يعطيك فكرة عن نهجه الخطابي قال :

« ان الثورة الفرنسية هي احدى نتائج الثورة الروحية التي اطلقت ضمير الانسان من قيود الخرافة السوداء وعقله من قيود السلطة الصماء وقلبه من قيود الطاعة العمياء فندبروا هذا واعلموا ان الحرية الروحية هي رسول الحرية السياسية ... ابعد حراً من لا يستطيع ان يبدي رأياً مخالفاً رأي سيده ،

ايعد حراً من لا يملك نفسه ومن لا راي له ولا روح له او يحسب حراً من كان وجدانه مقيداً بوجودان من يتوقف عليه معاشه ~~والحرية~~ الحرية الروحية هي ان تكون روح كل امرئ بيده وتصرفه لا محجوزة ولا موقوفة ولا مباعة ولا مرهونة ! ان الحرية السياسية اذن هي فرع من الحرية الجوهرية الاصلية الروحية او نتيجة من نتائجها يحدها ويقيدها الناموس من جهة والتهديب من الجهة الاخرى فبدون الناموس يستبد الحاكم ويتوغل في الطغيان وبدون التهديب يستبد الشعب ويمعن في العصيان . والناموس القويم الحي والتهديب القويم الحي انما هما حصنا الحرية المنيعان . واما الناموس فتمثله الحكومة في الدستور ويمثله الدين في الايمان وتمثله الانسانية في الضمير . فالضمير الحي والايمان الحي والدستور الحي انما هي الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحرية الروحية والادبية والمدنية . والحرية الجوهرية والروحية الكاملة لا تسود ولا تنتشر في الامم الا بواسطة العلم الصحيح والتهديب الصحيح .

والخطابة لدى الامين وسيلة تعبيرية كغيرها يتخذها لاداء رسالته الاجتماعية الانسانية ، ثور نبرته فيها او تتزن حسب مقتضى المواقف ولكنها تم دائماً عن اقتناعه الاكيد بما يقول ، يؤيد ذلك جيشان حيويته ساعة الكلام فكان كل لفظة وكل ايماء يتمخض عن شعوره الواعي . وهو الى ذلك يتوجه الى عقل سامعيه عن طريق الحس ، يورد الامثلة الواقعية والاستعارات الموحية ويتعمد السجع المحكم الايقاع ويحسم الحقائق بشكل بارز بليغ ليتسلل تدريجاً الى وجدانهم فيوحي اليهم ما يشاء . ولعل ممارسته التثليل في صباه ساعدته في تعزيز امكانية اقناعه اذ دربت القاءه ولهجته وجعلتها طبعين يتلائمان والفكرة فكان مثلاً مصوراً شاعراً خطيباً في وقت معاً لم يدرك عليه الا بعض القصور في حلبة التجويد اللفظي .

اشتدت الرقابة على الحفلات والاجتماعات التي كان يخاطب فيها الامين وهدد مسؤولوها بالعقاب الصارم اذا استرسلوا في الشذوذ فصدفت الجمعيات عن السياسة وما اليها وحصرت نشاطها في الادب والاجتماع . فكانت اذا دعت الامين الى الخطابة سألته ان يتغاضى عن الناحية السياسية خوف ممغبة الامر فكان يتهرب غالباً ويعتذر

عن الحضور لا سيما وانه كان منكباً على التذلل من اصول اللغة غارقاً في التأليف .
وقد اجاب مرة صديقه جرجي باز في هذا الصدد قال : « انا منهمك هذه الايام في كتاباتي
الانكليزية وقد كتبت روايتين قصيرتين ونظمت عدة قصائد وبشرت في نظم روايتي
التمثيلية وقد انتهيت من جمع المقالات العربية ونقحتها وصححتها جهدي وبعثت ايضاً
الى صديقنا محمد بمقالة جديدة للمقتبس عنوانها ربح سموم وفجواها من العنوان مفهوم
وزد على هذا كله مشقة النجو وبلية وما اقاياه بين الفراء والمبرد وابن مالك
والاخفش ، اي والله حيناً تمر في مخيلتي الفاء السببية يغشيني صداد شديد ولما افكر
في الفرق بين المفعول به والمفعول معه يحل المغص بي وفي ومعني وعلي فاود لو
عفاني الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين ولكن فوق كل
بلية بلية وهي الآث التخلض منكم ومن الخطابة في الجمعية (١) فكيف يمكنني
كتابة خطابي وانا مقيد من جهة بنظام جمعيتكم ومن جهة اخرى بارادة المضروبجي (٢)
وانت تعلم ان اكره شيء لدي الضغط والتقييد فلا يمكنني والحال هذه ان اقول
قولاً بلذ او يفيد . ان قوتي في حربي لا في شعري واذا وقفت على منبركم
وقلت يا جمل يا بوبعه عملاً برأي صديقنا قسطنطين فلا بد من ان احشر شيئاً من
روحي بين الكلمتين واشفق ان يسقط الجمل تحت اثقال الجمل وان نهرب البوبعة
من الزوبعة فقل لي رأيك وخلصني من هذه الحنة ياسي جرجي وانا بانتظار
جوابك » .

انها طبيعة الامين الثائرة اللامبالية تأتي الا الانطلاق البعيد في فضاء الحرية
والحق اللامتناهي . وانه الاديب الناهض يتطور ويستكمل وعيه الادبي فيتسامى
عن ترهات صباه ويعمل ليعمل ...



٧

احب امين امه واخته سعدى حباً شديداً حتى كاد لا يأتي عملاً الا بمشورتها وقلمها خالف امراً اراداه تلح عليه ام امين في ان يرافقها الى الكنيسة ايام العيد فيفعل مختاراً ، يسمع القداس ، يقرأ الرسائل ويقف خاشعاً متأملاً امام مذبح العذراء ، فيتهامس الحاضرون فيما بينهم حائرين معجبين كيف ان « الماسوني الكافر » كاتب المحالفة الثلاثية الثائر على الاكليروس والطقوس يتردد الى الهيكل المقدس وينحني واجماً اجلالاً لحرمة .

قد لا يكون امين مسيحياً ممارساً يقوم بالمراسيم الدينية حسب اصولها وقد لا يكون ذهابه الى الكنيسة الا مراعاة لحاظ امه الورعة ولكن بما لا ريب فيه هو ايمانه الصريح بالله والحقائق الازلية يؤيد ذلك جوابه لاحد المرسلين الشرقيين عندما سأل ما هو دينك ؟ فقال : « لا دين لي اسماً ورسماً ولكني اعتقد بالله ابينا اجمعين واعتقد بالاخاء البشري » (١) .

اجل كان يحتقر امين المظاهر والشكليات ويعتبرها باطلة كلها زاعماً ان الصلاة مجرد خير ومحبة وانسانية « لنخدم الله بالاعمال ولنسبحه بالاعمال » اما « اولئك المتظاهرون بالبرارة المصلون بفضل العادة المتعلقون بالقشور دون القلب » (٢) فانالهم قسماً كبيراً من تقريعه دون ان يتعرض للدين وقد غدا يميز بينه وبين مستثمريه . بعد ان تحرر من تأثير بعض الانتهازيين في اميركة وتطور نضوجه فكان اذا نقم على احد الكهنة او المتعبدين فلا تتعدى نقمته شخص الرجل واعماله شأنها

(١) الجزء الرابع من الريحانيات

(٢) الريحانيات الجزء الاول .

بالامس وقد اوضح موقفه من الدين ورجاله في سياق خطبة هنا بها صديقه المطران الزعبي يوم سيم استقفاً على ابرشية قبرص ، قال منها :

لئن ضمنت صوتي الى صوت القوم ومزجت شعائري مع شعائهم اليوم فذلك لاني لم ازل لبنانياً اغار على مصالح هذه الامة الصغيرة واقتخر ابداً بما بقي من محاسن وطني القليلة . لئن مدحت مع المادحين واستبشرت مع المستبشرين فذلك لاني مع الحق حيثما وجد ونصير الفضيلة في كل حين . نعم انا اول من يعترف للاكليروس بالفضل متى كانوا من رجاله وانا اول من يخضع لسلطتهم متى استخدمت تلك السلطة لتعزيز العدل وتأييد الحق ورفع المظالم عن الفقراء والضعفاء وبث روح التهذيب والعلم في الامة . وفي وقوفي امام سيادتكم الآن برهان حي ناطق على انني لست من الذين يقاومون ويقارعون الاكليروس لاغراض خصوصية ومآرب دنيئة وانما هي غيرة وطنية يا مولاي حملتني على مقاومة اولئك الذين يبذلون الدين وفضائله في سبيل الدنيا وزخارفها اولئك الذين يأكلون خبز النفاق ويزرعون في قلوب الناس بذور الشقاء ، اولئك العاكفين على جمع المال اللابسين ثوب الكهنوت عن غير اهلية واستحقاق .

انها الصراحة الحشنة المجردة تلازم تعبيره الجريء فتضاعف وقعته وتقرض الاعجاب وانه الخطيب الرصين يزين كلماته ويعرف مداها .

ويقبل الربيع في لبنان ومعه الجمعة العظيمة فيعيش الامين بالذكرى ايام صبوته « يحملني الخيال الى حقول الفتوة فاراني راكضاً حافياً في تلال لبنان صاعداً طوراً في هضابه وقد كستها الازهار وطوراً نازلاً اقطف في الوادي يوم الجمعة العظيمة طاقة احملها خاشعاً الى الكنيسة واضعها عند قدمي المصلوب العزيز » ويهبط الى الغاب فيجمع طاقة من الزهر ويضعها صاغراً كسائر المؤمنين امام الصليب « ان

اكتليل الشوك لاعظم من تيجان القياصرة وكاس المر لاطيب من خمرة الاكسرة
جئت الكنيسة لاردد اليوم مع الناس ذكر امير الناس بل ذكر الحقيقة التي
يعز نصرها بالعذاب ويحلو بمر الشراب - الريحانيات -

نعم كان يردد ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب ذلك الذي كان العذاب
رفيقه الدائم لقد عاد الى لبنان يبتغي الراحة والعزاء بين مواطنيه ، فاذا اللبنانيون
الا اقلهم نافرون منه لانه حارب الدين ورجاله واذا السلطات تطارده لانه نادى
بالتحرر واذا الداء العصبي ينتاب يمناه فيسلبه الهدوء .

داء عصيب كانت تتواتر عليه نوباته فتشل حركته وتطعن راحته اجمع اطباء
على انه نتيجة تأثير الرطوبة المتأصل في اعصابه منذ ان كان يقيم في محلة مانهاتن
السفلى .

ولكنه رغم هذه العوامل المختلفة المتواطئة على تنغيص عيشه كان يتابع سيره
الى الامام مرحاً متفائلاً رابط الجأش ممثلاً من قوة نفسه .

٨

كان الريحاني ادبياً عملياً واقعياً يعتقد ان اولى خدمة يؤديها مصلح للغير هي
ان يحسم بنفسه مبادئ اصلاحه ويحاها فيأتي انموذجاً ساطعاً لما يرومه في سواه ،
فراح يطابق بين قوله وعمله ويعيش حسماً يفكر وقد اعرب عن امنيته في الحياة
في مقال نشرته المنار ثم صدر به الجزء الثاني من الريحانيات جاء فيه « لا المجد ولا
الشهرة امنيتي القصوى ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة وانما امنيتي الجوهرية
الاولى هي ان اكون بسيطاً في اعمالى صادقاً في اقوالى مستقيماً في مبادئى وآرائى
فطرياً في تصرفى وسلوكى حراً فيما احب واكره وبكلمة اخرى اود ان اكون

تظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب بعيداً عن
الحجل الذي يذل النفس ويميت الحقيقة بعيداً عن الكذب والجريزة والمداهنة
والرياء . علي ان اقتبل ما يقابلني من العقوبات في مسالك الحياة بشأ جاداً ثابتاً
صابراً متجلداً علي ان اناهض الفساد والضلال في الناس والا اكره احداً من الناس .
اود ان اعيش دون ان ابغض احداً واحب دون ان اغار من احد وارترفع دون
ان اترفع علي احد واتقدم دون ان ادوس من هم دوني او احسد من هم فوقي . علي
ان اعيش صادقاً مسلماً مستقيماً . لا احب ان انصح احداً متى كانت نصيحتي بنت
فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة ولا ان أساعد احداً لا يعمل في مساعدة نفسه .
واذا كان في ما يلهم الناس الى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الرقي العقلي
الروحي احب ان اظهره بالمثل والاشارة واللفظ لا بالانذار والوعيد والتأمر
احب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كاحد الكواكب
السماوية لا كسهم من الاسهم النارية »

رجل خبر الظواهر كلها فاذا هي باطلة سخيقة وتذوق الشهرة البعيدة فاذا
هي براقة جوفاء راح بصقل نفسه وينمي الحصال الانسانية فيه بوداعة واتزان
فاعلم موقفه صريحاً عالياً من الحياة والبشر وحاول ان يكون وفيّاً له حتى ساعته
الاخيرة .

عرفنا اميناً يجب العزلة المطلقة ويسعى اليها ، لكنه كان يريد لها عزلة مختارة
كعزلة امرسون وطورو ، لا يشأ ان تفرض عليه فرضاً فتشعره انه اسيرها ، فكان
اما طال الشتاء واشتدت عليه الازمات العصبية ، تضيق انفاسه وينقم على عزلة
نورته الخمول ، وقد كتب يوماً الى اخيه جرجي باز يخبره بنقمته على الانفراد
المستمر قال : « لقد شبت من حياة الانفراد بل سئمتها وكرهتها وصرت اخشاها
والغنا بعض الاحيان . التخمة والسويداء والكابوس والبلاء وحديث البلاء

وخبت الاتقياء ونأي الاحباء والفقر والشقاء والفشل في طلب العلاء . كل ذلك ولا الجول انا لم اخلق للجول .

نعم كان يتذمر ويشكو ويشور ذلك الذي نادى بالتجملد على المكاره والالم ولا غرو فكل امرء مها بلغ اترانه يخرج عن طبيعته في حالات انقباضه المنقط . ايام واسابيع واسابيع تنقضي على وتيرة واحدة يسممها الداء ولا يعلم خلاها من امور العالم شيئاً لم يكن ليحتملها دائماً ذلك الذي تعود الحرية والتنوع والحركة في بلاد تتبدل كل لحظة ، فاخذ في الرحيل ...

ولكن كيف يرحل الريحاني عن هذه البلاد ولما تحقق بعد رغائبها السياسية . اين حرمة الواجب الوطني الذي عمل بوجيه الى الآن واين التفاني في سبيل المبادئ الذي دعا اليه . لا انه لن يغادر وطنه قبل ان تثمر فيه بذور الاصلاح والحرية التي نثرها ورعاها فيه ...

يقلع الامين عن فكرة السفر الى اميركة ويجدد عزيمته على الجهاد فيتجاوز نظامه التنسكي ويكثر تنقلاته بين سوريا وفلسطين ومصر يتصل باوساطها ويبثها آرائه حتى نجحت اخيراً جهود المصلحين ، فانتصر حزب تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ واعلن الدستور وتحققت الامنية الاولى من برنامج الريحاني الطويل .

ولكن اعلان الدستور لم يكن الا توطئة للاستقلال الحقيقي الذي توخاه الامين وقد كان يرى ان الحرية السياسية ثانوية التأثير بالنسبة الى « عوامل الوراثة والفطرة والمعايشة والتهديب » ، فانطلق يدعو الى نشر الثقافة وتعزيز الفن ، توصلاً لهذه الغاية : « ارفعوا اعلام الآداب في البلاد وشيدوا صروح التهديب واسسوا معاهد للفنون » لا يقصر نشاطه على الكلام المنمق بل يعمل بجد رصين على تحقيق المرام فاسس في بيروت جمعية الحياة الادبية التي ضمت بين اعضائها نخبة من الشبيبة

المثالية الراقية (١) . بتبغى تشجيع الثقافة ورفع مستوى الاخلاق في عصر غمرته
الآباء الاجتماعية الخطرة .

اما في الصومعة فكان امين منصرفاً آنذاك الى اعداد مسرحية عنوانها
— السجناء او عبد الحميد في الاتيني — والى وضع قصة اجتماعية اخبارية تتناول
الثورة الروحية والمثل الاعلى في حياة الفرد وتصور عقلية اللبناني والسوري المهاجر
وعاداته وخصائصه وامكانياته (٢) حتى اذا انجز السجناء في اواسط سنة ١٩٠٩ ،
مثلها للمرة الاولى على المسرح الجديد في بيروت بحضور جمهرة الاعيان والمتقنين
فاقتتها بكلمة حول المساواة اطرى في سياقها التربية الانكولوسكسونية التي تعود
الاتكال على النفس ، ثم قدم الممثلين وروايته وقد دار موضوعها حول حقبة
سوداء من تاريخ عبد الحميد حافلة بالمظالم تبعث الامتعاظ لدى المشاهدين وتثير فيهم
الانفة الانسانية الهاجعة وبالتالي النقمة على العهد .

كثر تردد الامين الى بيروت بعد زواج اخيه ادال (٣) فكان يقيم اياماً لديها
في الشتاء عندما يدعى الى لقاء المحاضرات في المعاهد البيروتية ولا سيما الجامعة
الاميركية ، فيتصل بمختلف الاوساط ويزور المكاتب وهي ملتقى الادباء حينذاك
يطالعون فيها الكتب الحديثة والمجلات والصحف ويتحاورون حتى اذا اتم عمله
آب الى الفريكة الى كتابه خالد في عزلة الوادي الموحية .

واتفق ذات يوم ان دخل امين مكتبة صديقه جرجي عطيه في بيروت وكان
هنالك المستشرق الروسي المعروف اغناطيوس كراتشوفسكي (٤) فدار بينهما
جدال رصين حول الحركة الادبية والاجتماعية في الشرق الاوسط ترك اثراً عميقاً

(١) نذكر بينهم اسعد رستم ، الدكتور الياس عبيد ، شبلي الملائكة بشارة الخوري قسطنطين

نعمه ثابت ، جرجي باز

The Book of Khaled (2)

(٣) قرينة يوسف صادر

(٤) استاذ الآداب العربية في الكلية الشرقية بطنفرا

لديها وكان يجهل كل منهما الآخر وقد ذكر كراتشوفسكي هذه المقابلة وظروفها في مقدمة ترجمته للريحانيات قال منها : « دخل امين يلبس عوض الطربوش قبعة محلية تدل على انه اقام في بلاد الغرب مدة طويلة وكان يلعب في عينيه السوداوين الغائرتين نوع من الالم فاستنتجت لأول مرة ان ضيفنا لا يخلو من شلل في يده وقد كان حديثه بعيداً عن كل تطرف وتحزب فلا يضع اللوم على الحكومة وحدها بل على الشعب ايضاً » .

... ويفترق الاديبان بعد هذه الجلسة ولا يلتقيان ، سافر امين الى طبريا يبتغي الاستشفاء في بحيراتها المعدنية ورجع المشرق الروسي الى بلاده .

ويقيم الريحاني مدة طويلة في طبريا معللاً نفسه عبثاً بالشفاء فلما خابت كل آماله واعياه الاضطراب غادرها كسيراً ناعماً وقد عول على ان يسافر الى اميركة عن طريق فرنسا وانكلترة لعله يجد في مصحاتها ما يبرئ سقمه الوبيل . لقد قعد به فيما مضى عن السفر واجب النضال في سبيل اعلان الدستور اما وقد حقق هذا المرام فلم يبق ما يمنعه عن ان يتأهب مطمئناً طليقاً للرحيل فجمع بعض خواطر واحاث متنوعة كتبها في المدة الاخيرة ونشرها في جزئي الريحانيات الاولين . ثم غادر بلاد الارز يلح عليه الداء الحرون بالاسراع .

كأننا الالم عامل ملازم لهذا المجاهد الجريء حمله بالامس الى لبنان ليدأوي في طبيعته الانيسية كلوم نفسه وليبعده اليوم عنه ليعالج علة جسده حيثما يحتم القضاء .

٩

ظهرت نظرات ' المنفلوطي في مصر والريحانيات في لبنان معاً عند بدء النهضة الاجتماعية والادبية في بلدان الشرق الادنى فجاء كأنهما على موعد سابق بينهما

ينفخان كل من جهة روح تجدد محبة في صدور النش الطالع ويفتحان عيون
شعب اعماها الجهل والتعصب والتقليد .

والريحانيات ، سلسلة من الخطب والمقالات كتبها الريحاني في مناسبات عدة
جست آراءه في اصلاح الفرد والمجتمع وفي الحياة عامة بل خطرات متفرقة على
هامش الايام لا تربط بينها صلة معنوية ما تقرأ فيها مثلاً مناجاة للطبيعة او دعوة
الى العود اليها (وادي الفريكة . من على جسر بروكلين) كما تقرأ تنديداً بالعادات
القروية السخيفة في التعزية وما اليها من الاخذ بالخطر والظواهر الفارغة بلهجة
ناقة كقوله : « اوراء ذلك نفس حقيقية تشعر بما تبدله العين وينطق به اللسان
وتفتت بالفعل كما يفتت صاحبها امام الناس او هل وراء ذلك آلة صماء تديرها
قوة التقاليد على عجالات العادات المزيبة بزيت التجميل والاطراء » او تعريضاً قاسياً
بمدينة الغرب وايقاراً صريحاً لمدينة الشرق عليها . رغم سيئاتها وذلك لزمه ان
الاولى « مدينة كهرباء وبحار ، مدينة تجارة وكسب ، مدينة حروب وفتوحات
واستعمار ليس فيها للضمير والذمة اثر من الآثار مدنية حدودها حب الذات
والاستئثار وثمارها اليأس والانتحار واما مدينة الشرق فلست بناكر انها مدنية
فتور وجمود واستسلام مدنية اصولها القضاء والقدر ولبها محض اوهام ولكن فيها
من جميل العادات والتقاليد من جميل العواطف والشعور من شهامة النفس وكرم
الاخلاق من الاعتدال في العيش والبساطة ما تفتقر اليه مدينة الغرب » وانك
لنجد في مكان آخر محاولة للتوفيق بين مادية الغرب وروحانية الشرق فتجتمع
محاسنها في حضارة مثلى « اريد ان ارى في بلاد الشام والعرب ثمار الانبياء وثمار
العلماء على شجرة واحدة » (وتسمع صرخة داوية تستفزهم المتقاعسين لشجب
اقطاعية الحكم وتخرضهم على ارتياد منهل الثقافة . وترى نقلاً تعميمية عن اعلام
الفكر العالمي اعوزها بعض العمق في التحليل والنقد . لاختارات تميزت بهزئها
القارس ونبرتها الثائرة ، ركيكة العبارة مضطربة البيان وليدة المناسبات الطارئة
تذوقها الناس اذذاك بلهفة جامحة مكبرين جدتها وطابعها الجريء ثم اعرضوا عنها
غير آسفين فيما بعد .

و كآني بالرياحاني في مقالاته هذه وهو حديث عهد بالادب، كان يقرأ كتاباً يؤخذ
بفكرته الرئيسية فيكتب تحت تأثيره مقالاً قلما جاء الا جهضاً لكنهما القراء وقد
قصر معظمهم اطلاعه على لغة الضاد ، كانوا يتحمسون له ويهللون .

لقد ظهر جلياً في هذين الجزئين الاولين تأثير فولتير وروسو ودروين ونيشيه
وغاريسون وسينوزا وبسكال وغيرهم من ذوي الخطوة لدى الرياحاني . او لم يقل
ان « كل شاب يخرج من عالم الخرافة المظلم الى بلاد الحرية العامرة يذهب تواء الى
فولتير ليقدم له الجزية » واي جزية يؤديها لفولتير خير من ان يكون تلميذه البار
يقتبس آرائه في التساهل الديني ويعتمد اسلوبه التهمكي اللاذع في محاربته الآفات
الاجتماعية والتعرض للاكليروس .

اما تأثير روسو فلم يكن اخف وطأة عليه من تأثير بطريك فرنيه ولا اخالك
الا لامباً نفسه الرومانطيقى اذ يقول : « ان في ورقة من اوراق التوت سرّاً لا
يكشفه اللاهوت ، الى الوادي اذن هناك بين اشجار البطم والزمزريق وتحت
ادواح الصنوبر والسنديان اشيد هيكल الايمان .

اراني هناك في بيتي في بيت الطبيعة بل في بيت الله .

في ظل القويسة والغار وبين الصعتر والوزال والخنشار . وبالقرب من ضحضاح
يشف عن نباتات حية تحت الماء وفوق النهر الجاري تحت قدمي هذا الوادي الرهيب
ابني لك ايها النفس هيكلاً من الايمان يؤمه في المستقبل البعيد من اخواني والقريب
بل اقيم فيه تمثالاً للوداد والاخاء وادعو اليه كل بشر تحت السماء او عندما يقول :
« ان الغاية الفضلى من الحياة هي ان يعيش المرء باتفاق تام مع الطبيعة ونواميسها .

ولا ينعق امين من سيطرة استاذيه الاكبرين ساعة الاليوتمي في احضان دروين
« نعم انني ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة الى ان يؤيد العلماء اعتقادي
فاني لمؤيده بما عرفه وبما اجهله من لوح هذا الوجود » ليستدرك بعد ذلك ويعزو
هذا الارتقاء الى العناية الالهية « ان في نشوء الانواع وارتقائها
عناية الهية عظيمة ، اني لارى يد الله في كل مظهر من مظاهر الحياة » او

ليشرب بالسورمان النيتشي فيقول : « وقد يأتي يوم يشاهد فيه ابناء الارض رجل المستقبل العظيم وقد ترقى فيه القوى الحيوية كلها اي القوى الحيوانية والبشرية والالهية الى منتهى الدرجات فالانسان مركب من هذه القوى كلها وهي كامنة فيه الى الابد » ليؤيد الحلولية في غير مكان « اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الالهي الذي نسمي مصدره الاصيل الهماً او خالقاً » او يبدي اعجابه بوليم غاريسون فيحذو حذوه في الدعوة الى تحرير الرقيق او يقتدي ببسكال في آرائه بالانسان « ان الحياة سلم اوله الحيوان ووسطه الانسان وآخره الملاك ، ينبغي العناية بالحيوان والملاك فينا على السواء » .

هذه هي باختصار اهم افكار الرمحانيات التي سيطرت مدة طويلة على معظم الاوساط الادبية الاجتماعية في هذا الشرق ولا سيما لدى النشء الظامئ الى المعرفة ، فاكبر اكثرهم عبقرية المؤلف وآمنوا بسلطانه فغدا بين ليلة وضحاها فيلسوف الفريكة وقبلة الادباء والمتأدين في كل قطر مجاور .

اما صفة الفيلسوف فهي من سخاء العامة تطلقها في هذه البلاد على كل ذي علم واسع واديب مجدد كما تدعو بالبيك ذوي الثروة والجاه . فامين لم يخطر له في رمحانياته مطلقاً ان يتعمد بحثاً منظماً لحل مشكلة كونية معينة على مذهب جديد شأن الفلاسفة في كل العصور فيصح ان يقال مذهب رمحاني كما يقال مذهب درويني او ماركسي مثلاً ، بل كل ما شاء ان يعمم الافكار الغربية التي اقبلها بقالب شخصي بسيط ليستخرج منها نصائح عملية تفيد ابنه . قومه وتظهر سعة اطلاعه وتفوقه الفكري وقد اتفقت له بعض خطرات فلسفية عابرة استمدتها من صميم اختباره المثير فنثرها « بدوراً للزارعين » هي ابعد من ان تكون مذهباً فلسفياً او شبه مذهب .

قلت الكتب العربية التي تهافت الناس على قرائتها تهافتهم على قراءة الرمحانيات ، وقد بقيت موضوع الصحف الادبية الاهم مدة طويلة تحليلاً وتقرظاً وتقابل بينها وبين نظرات المنفلوطي وتعلق ، كانت مي زياده وهي بعد متدرجة في الخقل

الادبي في طليعة المعجبين بهذا التجدد الجريء . اما اعوان الامين وكانوا قد قرأوا اكثر فصولها تدريجاً لدى نشرها في الصحف فرأوا فيها فتحاً جديداً في ميدان الفكر والكتابة .

ولعل اهم البواعث على هذا التهاوت العجيب اسلوب الكتاب الطريف ومؤاتاة مواضيعه لظروف الساعة في حقلي السياسة والاجتماع . كانت الثقافة الاجنبية في مهبها يومذاك والشباب المتأدب يفتش عن استاذ يوجه حيويته وينقر على وتر طموحه ، فلم يجد افضل من الريحاني المجدد المحرر يتخذة دليلاً له فراح يغتوف من ريجانياته نهماً وهو يخالها المثل الاعلى في الانتاج العقلي ؛ وهذا ما يبرر فتور قراء العربية اليوم عن مطالعة الريجانيات ، بعد ان انفتحت امامهم معالم الغرب وتسربت اليهم تياراته الفكرية واساليبه ومذاهبه .

وحري بنا في هذا المجال ان نقول كلمة على الشعر المنشور ، ذلك الزي الحديث الذي طغى على اسواق الادب العربي وكانت الريجاني سبابة الى تبليده في آدابنا (١) فحرر الشعر من قيود الوزن والقافية وجعله سلساً طيعاً يؤدي نزوات النفس على اختلافها بامانة ودقة ، لكننا افقدنا شيئاً من روعة موسيقاه على الاغلب ، وقد وصف الامين هذا اللون الدخيل قال : « يدعى هذا النوع من الشعر الجديد Vers libres وبالانكليزية Free verses اي الشعر الحراو بالحري المطلق وهو آخر ما اتصل اليه الارتقاء الشعري عند الافرنج وبالاخص عند الاميركيين والانكليز فملتن وشكسبير اطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولت وثن الاميركي اطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابجر العرفية . على ان لهذا الشعر وزناً جديداً مخصوصاً وقد نجى القصيدة منه على اجر عديدة متنوعة . وولت ويتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لواثها وقد انضم تحت هذا اللواء بعد موته كثير من شعراء اوروبا العصريين » . بيد ان الريجاني معرب هذا الفن لم يبلغ شأوه القصي فيه ، ولعلك لاحظت ذلك في

قصيدته - نفحة من لؤلؤة - التي مر ذكرها وهي نموذج عن سائر قصائده النثرية ،
لقد حسنت صناعتها وقوي سبكها ولكنها افقرت الى ايجاء خاطف تنفثه دغدغة
الانعام خلال الشعور .

ومها يكن من امر فالريحانيات وان لم تضيف شيئاً جديداً على التراث العالمي
هي لا شك حدث تاريخي له شأنه في الشرق، في عصرنا الحاضر ، شجعت الادب
الشخصي الصريح وعودت الجرأة في التجديد قبل جبران واثارت خصوصاً الوعي
الاجتماعي السياسي في ضمائر القابليين فمت على اثرها الاحزاب الاستقلالية تنادي
بالاصلاح العملي والتحرر الناجز .

انها المدرسة الاستقلالية الاولى لهذا العهد تتلمذ عليها الكثيرون من ادباء اليوم
وخطبائه ورجاله السياسيين . انها مهزاز تحررنا الناجز التام .

١٠

قرر الامين سفره نهائياً الى اميركة رغم دموع امه وتوسلاتها فودع الاهل
والوادي والصومعة وذرف عبرة لاهبة على صفحات ماض طواها في صميمها قد لا
يعود اليها .

وقبل ان يبارح لبنان ، اقيمت له حفلة وداعية في بيروت تكلم فيها بشاره
الخوري (الاخطل الصغير) ، اسكندر العازار ، جرجي عطيه وابراهيم حيدر
فاشادوا بفضلهم على النهضة الادبية والسياسية في هذه البلاد ثم ختمها هو بكلمة في
« قيمة الحياة » وكان الفراق وغصة الفراق ...

اسبوعان كاملان بين الماء والسماء ، وامين رهين مشيئة الامواج يفكر في
لبنان وباريس ونيويورك « في الاول روحي وفي الثانية قلبي وفي الثالثة قوتي

وثباتي « حتى وصل أخيراً الى مرسيليا ، فانتقل منها تَوّاً برفقة صديقه النجات يوسف الحويك الى باريس ، يزور مستشفياتها ويستشير اطباءها الاخصائيين . وتشاء الصدفة الواعية ان يجمع اميناً ويوسف في مدينة الفنون برسام لبناني شاعر لم يكن غير جبران وكان يقيم يومئذ في « الكارتيه لاتين » يدرس الفن التصويري في محيط متحف اللوفر واللكسمبرغ ومكتب اوغست رودين الرسام الشهير « رأيت في باريس مدينة النور يحمي الليالي على نور سراج ضئيل ورأيت بنات تموز ، نسوة الخيال ، يطفن حوله في سميرات باريسيات ورفيقات امير كيات فيزدنه بهجة والمأ ووجداً » (١) .

وقضى الفنانون الثلاثة اياماً في عاصمة الجمال يتصلون باوساطها الفكرية والفنية وقد تجانست عقلياتهم على نوع ما ، ثم واصلوا هفرهم الى لندن يتعرفون الى عوالمها وهناك يخطر لهم ان ينشؤوا في بيروت عند اياهم مسرحاً كبيراً لتشجيع التمثيل وضعوا تصميمه فيما بينهم وراحوا يدرسون جدياً امكانيات تحقيقه .

ويسافر امين من العاصمة البريطانية الى نيويورك يحمل الى اللبنانيين المهاجرين « بعض نفس الالهة من لبنان » فاذا به غريب بينهم بعد غيبة جاوزت السنين الست ... لقد خاب سعيه في انكلترا وفرنسة واعياه التفتيش عن دواء ناجع لاله العصبي المزمين فعلق كل آماله على اميركة ام الصناعة الحديثة ومهبط العلوم العملية فاذا بها تحببه بدورها فيستسلم لطب الزمان متجلداً على احتمال النوبات العصبية برباطة جأش وابتسام حتى اذا تواترت عليه ازهاتها عمد الى اعمال فكرية شاقة تستنفد حيويته فتنتسيه واقعه الالم .

كان الامين اثناء مكوثه في لبنان على اتصال ترسلي وثيق باصدقائه في اميركة لاسيما اعضاء نادي الثريا والادباء مواطنيه ، فجدد علاقاتهم بعد عودته ، واخذ يكتب مقالات ضافية عن تطور الاحوال السياسية والاجتماعية في لبنان وسوريا وعن ترقيا الحثيث ، نورت اذهان المعتريين عن حقيقة بلادهم . اما برنامج عمله فلم

يكن ليختلف كثيراً هناك عما كان عليه في لبنان . أيام تتعاقب مثقلة بالأعمال لا تعرف للفراغ معنى . فالأمين الذي فطر على السخاء كان يضمن بساعة من وقته تذهب هدرًا ، يدلك على ذلك سعة تصاميمه الأدبية وخصب إنتاجه .

ويتم كتاب خالد في أوائل سنة ١٩١١ فيسلمه الى الناشر ، يفعمه تفاسيل كبير بنجاحه ولا غرو فقد ضمنه شرطاً نابضاً من صميمه .

اخرجت شركة Dodd Mead النيويوركية كتاب خالد سنة ١٩١١ فلم يلبث ان انتشر في الولايات المتحدة وانككتورة ومصر بسرعة تدهش ، فتناولته كبريات الجرائد فيها بالنقد الوافي مثنية على اسلوب الاديب الطريف وطول بابه في اوضاع اللغة الانكليزية وتعابيرها (١)

وكتاب خالد ، درس اجتماعي قصصي فيه تصوير لنفسية المهاجر السوري او اللبناني (٢) وتحليل لآخلاقه وعاداته في الغرب يشتمل على ثلاثة اقسام هي - في السوق - في الهيكل - في كل مكان - بدأ المؤلف كلا منها بانشودة ترمز الى المغزى العام يناجي الانسان في اولها فيقول : « مها جزل خيرك ومها تفاقم شرك ، لا ازال اخاك . مها عليت في مدارج الحياة ومها تسفلت لا ازال اخلص لك واؤمن بك واحبك » وفي ثانيها الطبيعة « ايتها الام الازلية السماوية الجهنمية هانذا امامك اخر ساجداً عند قدميك اسلم نفسي اليك ... عانقيني واهمني في اذني بعض اسرارك ، املئي حواسي وكياني من نفحاتك ونسيماتك اقتحي امامي اعماق روحك يسر الي

(١) « ان العنصر الشرقي بواسطة كتاب خالد قد تبوأ مقعده من الادب الانكليزي »
- بوستون هرالد - « ان لامين الريحاني منحة سامية من جمال اللفظة »
-- نيويورك بوست -

(٢) لم يكن يميز امين يومذاك بين اللبناني والسوري

بعض ما فيك من قوة وعزة وعظمة وجلال ، وفي ثالثها الى الله « عبثاً طلبتك ايها الرب الاله في اديان الناس وعبثاً بحثت عنك في سرادب عقائد الناس » .

وخالد بطل القصة ، شاب بعلبكي هاجر الى نيويورك مع صديقه شقيب حيث اقاما يبيعان « بالكشة » فاتيح له ان يدرس مدينة الغربيين ولا سيما الاميركيين عن كسب ثم عاد الى لبنان متحرراً راقياً يبدي آراءه الخاصة في الدين والمجتمع فجر عليه نقمة الاتحاديين فيما تعلق بسياسة الشرق الثورية واليسوعيين والاكليروس عامة من حيث حرية الفكر والعقائد المذهبية . انه ليمثل المهاجر الطموح الذي كون ذاتيته بفضل جهاده الشخصي ينظر الى المدينة الشرقية بعين الغربي فيتمنى لو تنتشر العلوم والصناعة الحديثة في بلاده والى العربية بعين الشرقي فيركز بالروحانيات .

انه مسيحي المولد شرقي الصبغة اسلامي الالهجة ، يسرد آراء الريحاني ومبادئه في التساهل الديني والتوفيق بين ذهنيتي الغربيين والشرقيين واصلاح الفرد ، بل هو الريحاني نفسه يعرض افكاره باندفاع .

انها نظريات امين المتفرقة المتباينة التي عبر عن اكثرها في ريجانيته تأتلف هنا وتنسجم في وحدة متجانسة فتظهر رأيه في المدنية المثلى ، مدينة متزنة حرة توازي فيها العقل والروح ، وفي الفرد المثالي ، فرد تحرر من العصبية والجهل والتقليد وصهر في ذاتيته ميزات العالم الغربي والمتصوف الشرقي . وهاك الآن مقطعاً من هذا الكتاب كلفؤذج عن نهجه الكتابي المبتكر .

« على جادة الروح الشاملة ، العالم كله امامي طرباً متلاًئلاً يغني انغام الحرية والايمان والرجاء والصحة والقوة والفرح .

عد الى المدنية يا خالد - اي حيث تجد الصدق والثقة والامانة والحكمة على الدوام في عذاب وفي نزاع وفي غلبة .

لا لست ابالي بما يقال من ان روح الذكاء والقوة ، روح الحرية والتهذيب التي

لا بد من ان تكمل دورتها حول الارض هي ابدًا مسيرة بعامل المصلحة الذاتية الغريزي . هذا امر لازم - لا بد منه - فطرة المصلحة الذاتية يا اخي سارية في عروقنا - مجالس السياسة تزول - الشعوب تنهض وتسقط ولكن الروح الابدية - مصدر الافكار السامية وان تغلبت عليها الايدي المختلفة تبقى سائرة تنقى وتتقوى في دوراتها .

للشرق والغرب ارنم - للنهرين العظيمين اللذين بهما ينتعش الانسان ويتقوى ويتطهر جسداً ونفساً لكليهما اغني وبهما افتخر ولهما اوقف حياتي ومن اجلهما اعمل واتالم واموت .

اخواني ان اعظم الناس ارتقاء ليس اوروبياً ولا شرقياً بل هو الذي يختار من مزاج الاثنين مزاجا النابعة الاوروي ومزاجا النبي الاسيوي .

اعطني يا شعوب الغرب القوة لوازمي المادية في هذه الحياة وانت ايها الشرق ، يا بلادي اشركيني بميراثك الروحي .

... انني اصبح معك يا غايي «النور وكثيراً من النور»

ومعك اقول يا تولوستوي « المحبة وكثيراً من المحبة » .

ومعك انا يا بسن « الارادة وكثيراً من الارادة » .

نجح الريحاني هنا بنوع خاص في توفيقه بين الصيغة والمعنى ، فجاء اسلوبه شعرياً في مواقف التأملات الروحية ، اخبارياً في السرد الواقعي وخطابياً ساعة الاقناع والعظة . الا انه جنح الى التكلف احياناً فتعمد الفاظاً ندر استعمالها وتعاير معقدة غامضة ، فضلاً عن ان اسرعه في تهية الفصول الاخيرة اورثها بعض الاضطراب في اللحمة والتقلقل في تسلسلها المنطقي .

اما اشخاصه فاحياء على الاغلب يعيشون في بيئات حية ايضاً بارزة الصبغة المحلية ، لكنهم يسرون احياناً حسب خطة مرسومة وضعها المؤلف لهم من قبل فتخلهم عمياناً يساقون سوقاً الى غاياتهم لا سيما ساعة يسترسلون في المواعظ التي لا تنتهي فتتساءل عندئذ هل انت تسمع الريحاني يخطب ام تصغي الى بطل الكتاب .

فلو صرفنا النظر عن هذه العيوب لوجدنا ان للكتاب قيمة ادبية لا تنكر من حيث اسلوبه الشخصي النابض وتساويه الواقعية الناطقة وتفهيم عقلية الشري والمهاجر ، جعلت صاحبه في مصاف مؤلفي اميركة البارزين تحدث عنه اوساط الادب باعجاب وتكتب عنه الصحف معلقة مقرظة .

انه الطموح توجهه الارادة الواعية ، ويغذيه النشاط المستمر يجعل توق الامس واقع الحاضر ، اين امين المحالفة الثلاثية العابت المتقلب من امين اليوم...

١١

كان امين ولعاً بمطالعة سير العظماء والابطال لا تقع يده على احداها الا التهمها وفتش عن سواها ، فاتفق مرة ان استوقفه بصورة خاصة كتاب الابطال وتألبيهم لكرليل وهو يبحث في ايجاد العرب الغابرة ورسولهم الاكبر فاثار اعجابه بذلك الشعب الاثيل ، ولم يكن يعلم عنه يومئذ ، على حد قوله ، سوى ما كان يسمعه ايام الطفولة « هس جا البدوي . والبدوي والاعراي واحد اذا رامت الام بعبعاً تخوف به ولدها » (١) وحمله على الاستقصاء عن حقيقتهم باهتمام « كان كارليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي سيد العرب الاكبر النبي محمداً فاحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم » (١)

قرأ الامين كتاب كارليل مرة ومرات كما قرأ كل ما اتيح له عن العرب وهو بعد لم يرتو . ان حبه لهذا الشعب الباسل تمكن منه حتى حمله على ان يفكر بزيارة الجزيرة ويدرس احوالها عن قريب . فلما اقبل صيف سنة ١٩١١ عاد الى لبنان

الى الصومعة، مأخوذاً بذاك الحاطر الغريب وشرع يهيئ السبيل لتحقيقه . وهناك في الفريكة ^{التي} اجتمع بصديقه القديم محمد كرد علي ، وكشفه بعزمه قائلاً : « في نيتي ان اهجّر حتى هذه الوادي وفي نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية ، على هجين يبعديني عن كل مظلمة وكل عبودية ، فهاهنا صديقي وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يمهّدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود . لكن الايام عدوة الاحلام وانها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب ، تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة ويفر هارباً من سورية » (١)

وهكذا انغمست الرياح في الظروف القاهرة على ان يؤجل رحلته الى ان تنهيا له الاسباب ، فينزوي في صومعته من جديد يواصل الابحاث التي كان بدأها في الولايات المتحدة .

وفي تلك السنة نفسها كانت ماري زياده تصطاف في ظهور الشوير (٢) « في كوخها الاخضر » ، فسمعت بعودة الريحاني الى لبنان فشاءت ان تتعرف اليه وقد تذوقت ادبه الشخصي في الريحانيات وايدت دعوته الى الجديد فابدت ورغبتها تلك الى صديق الامين لم يلبث ان ابلغه الخبر فاكبر هذا جرأتها الواعية وقصدها زائراً الى حيث كانت تقيم مع ابينا .

وهناك في الكوخ الاخضر جرت المواجهة الاولى بين الريحاني وامي . غريب وغريبة في بيئتهما ، شريكان بمجددات تأثران على الرجعية يتكاشفان ...

(١) مقدمة ملوك العرب

(٢) من خطاب مي في مصر سنة ١٩٢٢

دعا الريحاني مياً الى زيارته في الفريكة فلبت واقبلت بعد ايام مع ابيها وبعض
الادباء « تزور جانباً من الوادي متمسة خطوط الصخور والاشجار متمسة هيمنة
النسائم وهدير النهر المهرول الى حوض البحر » ومتمسة ايضاً ذلك السر الغريب
يجذبها الى قرية قفراء .

ويأتي الحريف وترجع مي الى مصر وللقرية منزلة لديها . اما امين فقد وجد في
نزيلة الكوخ الاخضر المثل الاعلى الذي تخيله للفتاة الشرقية الناهضة ، انوثة باهرة
وذكاء وذوق واتزان ، فانطبعت ملاحظها الفارضة في صميمه عند شعوره ساعة الاستلham .

ويتنسك الامين في الفريكة كعادته يدرس ويؤلف ويتأمل فيتوافد اليه
الرفاق المخلصون مزودين باخبارهم يعالجون معه مشاكلكم ويتعاونون في حقول
الادب والسياسة والاجتماع في جو من التفاهم والمودة ، وهو الى ذلك لا يني بحاول
تحقيق رحلته الى الجزيرة . ولكن الاقدار الهازئة كانت تقاومه كل مرة وتحطم
امانيه حتى « طوحت به اخيراً وابعدهته عن الوادي وعن البلاد العربية كلها »
فركب البحر خائباً كسيراً الى العالم الجديد وقد ترك شطراً منه في هذا الشرق
حيث ذووه وصحبه والفريكة ومي ...

١٢

وصل الريحاني الى نيويورك ساخطاً على الزمان ناقماً ، فهاجته الحنين الى بلاده
انهادته ، الي ليا ليها القمر ، الى انغام الفجر وضياقة الطبيعة ، فثار ثأره على مدينة
البخار والكهرباء وخاطبها غاضباً يقول :

« احشاؤك من الحديد وفيها عقمه وصدرك من الحشب وفيه سوسه فمك من

النحاس وعليك صداؤه جبينك من الرخام وفي جمالك جموده . تشربين ذوب
الابريز وتأكلين معجون اللجين وتنتعين اجنحة العلم وتلبسين الفاخر من الحرير
والنادر من الحلى وقلبك قار يشتعل .

ابنت الهمس والصبح ليس في صوتك نغمة من انغام الفجر والصبح في
صوتك رنة الذهب وجموده ان في الملاهي وان في الاسواق ان في المصارف
وان في الكنائس .

ابنت الثروة والاحتكار في مخازنك خيرات الارض وفي خزائنك الاموال
والحلى وفي قصورك عجائب الحضارة وفي جاداتك بهاؤها وضجيجها وهولها وعجيجها
وفي اكواخك الظلمة والفقر والجوع والابتن .

غريب امره هذا الرجل ، يعيش في لبنان مدة فيسأم الحياة فيه تنقضي على
وتيرة واحدة ويرحل الى اميركة ليمكث شهوراً ثم ينقم عليها وتحول له العودة الى
الوطن ، كأنما العالم جديده وقديمه لا يتسع له على رحبه فيفتش عن هنائه في عالم امثل
تصوره في خطوطه الكبرى وحاول ان يحسمه ويعيش فيه بما كتب ويكتب .

بدأ الافق السياسي العالمي يتلبد شتاء ١٩١٤ وتوقع النسياس نشوب حرب
جارفة بين ساعة وساعة ، فساور الريحاني خوف مغبة الامر لان حرباً تشتعل في
اوروبة تنفث لهيبها على الدنيا قاطبة وتقطع الصلات بين اطرافها ، فتواترت رسائله
الى اهله وصحبه والى اللبنانية المتمصرة مي خافقة بشعور واجس حذر تسرب بين
ليات كلام لم يشأ الافصاح كله .

ويحدث المنتظر وتقع الحرب الكونية الاولى ويلقي غليوم الطاغية واعوانه
الرعب في القلوب ، فاتخذ الريحاني موقفه صريحاً لجهة الحلفاء لا سيما وانه وجد
في ذلك مجالا للعمل على تقويض السلطنة العثمانية وبالتالي تحرير العرب فاخذ
يكتب في الصحف ويساهم في تهيئة الرأي العام الاميركي للنقمة على الالمان
وقد كانت اميركة يومذاك القارة الوحيدة التي لم تبلغها نار الحرب ، فبقيت فيها
الحياة السامية على طبيعتها ، تجري الحفلات المختلفة في مواسمها وتنظم المعارض

والمباريات كالمعتاد كما لو ان الكارثة العالمية لم تكن . واتفق في تلك السنة ان اقيم في سان فرانسيسكو معرض للرسم واسع النطاق ، نالت جائزته الاولى آنسة سكوتلندية الاصل تقطن ولاية كاليفورنيا اسمها بروتا كايس ، فنشرت صورها اكثر الصحف الاميركية ونوهت بمزاياها الفنية البارزة متنبئة لها بمستقبل نادر ، فنار فضول الريحاني الى التعرف اليها وقد عهدناه بهوى التصوير منذ الحداثة .

وتشاء الصدف ان تجمع اميناً وبرتا في حفلة شاي راقصة في نيويورك احياها صديق مشترك ، وكانت الرسامة قد قرأت - كتاب خالد - وتذوقت نهجه الشعري ، فتحدثا قليلاً عن الفنون ثم رقصا معاً ليوثقا عهد التعارف الجديد . وكان ذلك في اوائل سنة ١٩١٥ .

وفي تلك السنة نشر الريحاني - زنبقة الغور - وهي قصة اخلاقية اجتماعية جرت وقائعها في فلسطين ، تكشف الستار عن بعض الآفات الاجتماعية الخفية وتظهر تأثير البيئة في تنشئة المرء كان نجاحها بين بين ولا غرابة فقد خلت لحنها الروائية من التماسك المنطقي وافتقر لونها المحلي الى وضوح مميز عدا ان التلقين المدرسي طغى على اشخاصها وطمس طابعهم في اكثر المواضع .

وتسير الحرب في طريقها ويزداد قلق الامين على اهله لاسيما وقد بلغه ان الجبل اللبناني المستقل خضع مؤخراً لسيطرة الترك وتفتش فيه المجاعة والابوثة ، فضاق به انكماشه واحس بحاجة لازبة الى جو ودي آمن يجره من تلك السويداء الغليظة التي ولدها لديه مزيج من العوامل النفسية والجسدية المتباينة ، غد عابس يخنق الامل ، وجع متقطع يحز الهدوء وعاطفة مبهمة فطمها البعاد الجاف .

كانت بروتا كايس اخصائية ماهرة في وضع السيناريوهات تأتي نيويورك بين الحين والحين لتعرض انتاجها على الشركات السينمائية التي تعاقدت معها فتنزل يومين او ثلاثة في احد الفنادق هنالك تطلع على مجرى التطور الفني ثم تعود الى ولايتها . واتفق يوماً ان اقامت في فندق يحله الامين فالتقيا فيه للمرة الثانية وتوطدت صلات التعارف بينهما ، وكان الربيع في اوج خضلته ...

آنس الامين المضطرب بيوتا كليس واعجب بفطرتها وطرأوتها فترقب الفرص
ليلتقيها ، واخذ التفاؤل الغائر يشع في عينيه من جديد ، فتمت الصداقة سريعاً
بينهما يسمعها خير ما كتب وتريه زهرة رسومها . قلائم ذوقها وغايتها في الحياة
وشعر كل منهما انه يكمل الآخر .

انه الحب المبني على التقدير المتبادل يشق طريقه خلال الصداقة من حيث
لا يعيان .

١٣

شقاء هيفاء ، بوتا ، نضرة الصبا مريعة الحاطر خفيفة الروح استهوت فؤاد الامين
الشاكى الفراغ فصار اذا اتعبه الالم وارجمته الوسوس لا يجد عزاء الا بقربها ،
ان انفاسها وحدها كانت قديرة على تخدير لوعته الناهشة .

وتتقضي السنة ويتواتر الوصال بين العشيقين والامين يكتشف كل يوم ، بل
كل ساعة ، حسنة جديدة لدى عروس احلامه حتى بلغ الحب لديه اقصى مداه
فاوحى اليه الزواج ... لقد جمعت بوتا الى جمال الانوثة الاخاذ جمال الخلق والفرن
والادب ، وهل هناك خير من هذه المزايا فيمن يختارها امثاله شريكة لحياتهم .
سؤال طالما طرحه امام وجدانه الهادئ ، فكان ارتياحه الكامل ابلغ جواب وفي
ذات يوم بينا هما ساجدان في اثير الانخفاف ، كشف امين بوتا بفكرته تلك فاطرقت
حيناً ثم حققت منه وهي موقنة من تأمر كه المطلق . ولم يدر في خلدها آنذاك ان
الطبع قد يغلب التطبع فيه يوماً !!

هذه هي احلام الخيال المبهمة تتجسد اليوم واقعاً اكيداً . وهما امين وبوتا

في المحكمة المدنية في نيويورك مطرقان يتفرسان بالغيب بينا القاضي يهيء
لا مبالياً عقد القران (١).

كانت الحرب في اشد استعارها تلك السنة وكانت الصحف الاميركية ظمأى
الى اخبار وثيقة المصدر عن ميادين القتال فاوفدت مجلتي البوكن والفوروم اميناً
وكانت يحرر فيها الى الجبهة الغربية ليطلعهما بتفصيل على الوضع الحربي فيها
فاصطحب هذا عروسه واتجها معاً الى فرنسا حيث قضيا فصل الصيف ابان احتدام
المعارك بتفقدان الحالة فيها عن كتب قياماً بمهتهما ويسيجان متذوقين اشهى ايام العسل
فاتصلا في باريس ببعض الاصدقاء والادباء ولا سيما شكسبي غانم وخير الله خير الله
وتعززت اواصر اللفة بينهم ولما اشتد الخطر على فرنسا هربا الى اسبانيا وهناك
اخذا يطوفان بين اشبيلية وغرناطة وقرطبة يتأملان في آثار العرب الشاهد الحي
على مجادهم التليدة « ان في قلب الاندلس ملجأ قلماً يلجأ الاندلسيون اليه .
هناك مقام لا تسمع فيه ضجة العيد ، مقامات كان لها من السرور ايام زاهرة
ومن المجد اعلام وقباب ما تبقى منها اليوم غير قصور متهدمة نبتت في جذرائها
الاعشاب ونظم العنكبوت مرثاته فوق النوافذ منها والابواب وجلس في عروشها
العالية السكون ودفن في جناحتها المهجورة الشعر والادب والفنون طول كانت
بالامس معاهد وقصوراً ، هذي آثار العرب وقد امست عروشاً لربة النسيان
ومدفناً لمجد الزمان وعبرة بليغة للانسان » (٢)

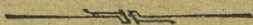
وتعلن الولايات المتحدة الحرب على المانيا سنة ١٩١٧ فيخشى الامين ان تنقطع
المواصلات عبر الاطلنطي فيغادر اسبانيا مع قرينته الى نيويورك . وهناك

(١) سنة ١٩١٦

(٢) الرمانيات الجزء الثالث

عهد اليه سفير فرنسة بمهمة سياسية في المكسيك ترمي الى توحيد صفوف المغتربين
 لنصرة الحلفاء ، فسافر الى مكسيكو حيث اخوه يوسف التاجر المعروف واخذ
 يخطب في انديتها ويتصل بذوي الشأن فيها من المهاجرين يحرضهم على التكاتف
 والنضحية في سبيل الحلفاء . الا ان عمله هذا لم يكن ليروق طويلاً حكومة تلك
 البلاد المتغرضة للامان فلم تلبث ان ابعده عن حدودها ، فعاد الى نيويورك يشترك
 في لجنة تحرير سوريا ولبنان ويستأنف نشاطه الصحفي والخطابي حول القضية
 العربية ، وكانت ثورة السلطان حسين قد شقت طريقها ولاقت بعض النجاح
 « رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في المجالات الانكليزية
 والجرائد العربية فكنت اقوم ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب »
 وهو الى ذلك لا يني بحث المغتربين على محاربة تركيا واغاثة اخوانهم المقيمين وقد
 نكبتهم المجاعة الجاحمة « اخواني ابناء وطني ، نحن لا ندعوكم الى الحرب في
 سبيل امة غريبة اجنبية بل في سبيل امتنا وبلادنا ندعوكم الى الدفاع عن بيوتنا
 عن حرمنا عن اهلنا المنكوبين اليوم الى السلاح لاسترداد حقوقنا المسلوقة ولانقاذ
 بلادنا من براثن الغول التتري . الوطن يناديكم البقية الباقية فيه تستنجدكم
 تستغيثكم . ارواح الاحرار ، ارواح شهداء الامة تصرخ بكم . يا ابناء سوريا
 البثار الثار الانتقام الانتقام ارواح الالوف من قومنا الذين ماتوا جوعاً ونجوعاً
 تناديكم اليوم يا بني لبنان وتدعوكم الى الجهاد الى السلاح » .

ان الامين هو هو ، قبل الزواج وبعده ، اديب خطيب مجاهد لا يتوانى في
 اداء رسالته ولا يلوى له عود .



١٤

كثيراً ما تاق الريحاني الى جو عائلي آمن ينسيه مصاعب الحياة بعد ان سئم عدم الاستقرار المستمر ، فنعم لأول مرة في اميركة بعد زواجه بتلك الطمأنينة العذبة التي الفها من قبل في كنف ام امين وسعدى بالفريكة واعطى لقلمه مداه ...

اتم سنة ١٩١٧ - خارج الحريم اوجهان - فشرتها شركة الفنون في نيويورك ، قصة اجتماعية مسرحها تركيا الغائصة في لجة التعصب والجهالة صور فيها ما تعاني الصبية هنالك من مشقات واضطهاد اذا ما خلعت نير العادات الجائرة وسارت على غرار اختها الاوروبية . وقد اختار امين صفحة قائمة من التاريخ العثماني ، عهد وصل الالمان الى فروق بعد نشوب الحرب وسخروا دقة الحكم لمصالحهم ، تقع تركيا بين ناري الحلفاء اعدائها والامان اعوانها فتستغيث صارخة « ربي نجني من اعدائي واعداي » وفي هذا الموقف الحرج تظهر جهان بطله القصة وهي الفتاة الراقية التي تجندت الدفاع عن حقوق المرأة وعن كيان تركيا المهده وقد طلقت زوجها الاول لاشراكه بها وارادت ان تتزوج ثانية لتلد منقذين لوطنها ، فتعاندها الاقدار ويغتصبها قائد الماني كان يحبها فتقتله بعد ان حملت منه طفلاً المنشود .

ان هذه القصة تستهدف غايتين اثنتين ، احدهما اجتماعية قطباها تحرير المرأة والتساهل الديني ، والاخرى سياسية هي اظهار سيطرة الالمان على الاتراك ، اسلوبها الروائي قريب المتناول عصبي اللهجة يفتقر الى تسلسل منطقي وتحليل عميق . اما تأثيرها فكان بليغاً جداً في اوساط المهاجرين وكلها ناقمة اذ ذاك على الاستبداد التركي ترحب بما يغذي سخطها على ذلك العهد الاثيم .

قضى امين وبرتا سنتيهما الاولين بعد الزواج في تفاهم ومودة نادرين ، يتبادلان الرأي الصريح في انتاجيهما ويتناقشان حولهما كفنانين صديقين وقد وضعوا برنامجاً منظماً لحياتهما اليومية يتمشيان عليه بدقة صارمة فكانت تراهما في ساعات العمل في مكتبيهما قابعين منفردين ، برتا منصرفه الى الرسم وامين الى الكتابة منقطعين عن العالم الخارجي تمام الانقطاع .

انتصرت ثورة لينين في روسيا وسيطر البلاشفة على الحكم وغدت البلشفة ، حقيقتها ونظرياتها ، حديث العموم فراح امين يهيء سلسلة البحوث تاريخية تتناول مصادرها وتطوراتها خلال العصور ، وفي تلك الاثناء توطدت علاقاته بادباء المهجر ولا سيما جبران ونعيمي وحداد وعريضة . فكانوا يجتمعون غالباً في مكتب - مجلة السائح - وهناك يتبادلون الرأي في الشؤون الفنية والادبية ويتسامرون في جو من المودة المرححة .

اعلنت الهدنة في خريف سنة ١٩١٨ فتنفس العالم ملء رئيته واخذت المواصلات الدولية تعود تدريجاً الى مجراها الطبيعي فبادر امين يستعلم عن احوال بلاده واهله وصحبه بعد ان حلت بهم اروع النكبات فكتب الى امه واختيه يخبرهن بزواجه ويستوضح حالهن بتفصيل وقد ارسل اليهن شيئاً من المال وبعض رسوم له ولزوجه ، كما كتب الى اصدقائه والى مي يخبرهم بما صار اليه ويبشهم شوقه بعد غياب طال وامض .

وفي اوائل سنة ١٩٢٠ اخرجت شركة ستواتفورد في بوسطن The Descent of Bolshevism (١) فقيض له نجاح يذكر نظراً لطرافة

الموضوع وشهرة المؤلف . حاول الريجاني في كتابه هذا ان يجعل نشوء تلك الحركة الفكرية في الشرق - منبع كل خير وشر - فبحث في تاريخ الحركات التي قامت في بلاد الانبياء وكان لها بالشيوعية صلة ما من المزايدة الى الخواارج والقرامطة فالحشاشين لينتقل الى حركة المتنورين التي قام بها في المانيا في اواخر القرن الثامن عشر الاستاذ ويسهاوبت واسياعه . اما علاقة هذه الحركات بالبلشفية فمنشؤها كلها، حسب زعمه، عن التمرد على القوانين الظالمة والتفاوت بين حقوق الشعوب وموجباتهم ولا فرق بينها البتة الا في المحيط والاسماء فقط ثم يخلص اخيراً الى القول « ان البلشفية كسائر الثورات الاصلاحية التي سبقتها عاصفة تهب حيناً ثم تهدأ بعد ان تورث نتائجها الحسنة لان الامة التي تخوض عذاب الثورة تكسب قوة أدبية وروحية توازي بل تفوق ما خسرت من القوى المادية »

وتتسع شهرة الاديب في العالم الانكلوسكسوني تكتب عنه كبريات الصحف باعجاب وتتسابق على نشر كتاباته التي بدأت تدر عليه مالاً وفيراً ينفقه عن سعة لا مبالية . واخذت اخبار الوطن ترده على التوالي ان في الصحف وان في رسائل الحلان ، وقد كتب يومئذ الى صديقه الجميم بشاره الجوري صاحب البرق يقول : « ادعوك وللبرق بالتوفيق والاقبال . كنت اود ان ابعث اليك بمقالة تنشرها في الجريدة ولكن الناس مشغولون اليوم بالسياسة ولا سبيل للاداب الى القلوب والعقول وكتاب السياسة عندك كثيرون . هل لك ان تكتب الي وتطلعني على بعض الاخبار التي يتعذر عليك نشرها ؟ ... »

« يتبادر الى ذهني ويتسارع الى قلبي اسماء كثيرين من الاصحاب والحلان ولكنني صرت اخشى ان اسأل عن احد وصرت اشعر اني غريب في تلك الديار التي احبها كثيراً فسلم كثيراً على كل من يسألني عني من الاصدقاء ودم سالماً عزيزاً موقفاً لاختيك امين » .

نعم كان يشعر على حق انه غريب عن بلاده وقد هجرها منذ ثمانية اعوام فراح يفكر في العودة اليها طلباً للطمأنينة والهدوء ... ويصله جواب مي مثقل بالعتاب

والشكوى المبهمة بعد ان اخبرها بزواجه ووصف لها قرينته باعجاب فثار حسد المرأة لديها ولعنت قدراً مشؤوماً احلها لبنان .

فاحس امين عند ذاك ان الماضي الذي تناساه في فترة اضطرابه اليأس يبعث الآن جياً امامه ويهرق خطاه .

١٥

دامت العلاقات الودية طويلاً بين الريحاني وجبران ، بين واقعي يبتغي الإصلاح العملي وخيالي ينشد المطلق ولا غرو فقد جمعت بينهما رابطة الفن والصدقة ، كان جبران رساماً شاعراً والريحاني نقادة فنياً معروفاً ، فضلاً عن كونها شرقيين غربيين في عالم اليرد والدولار والميزان ، يؤمنان برفعة الروح وحقارة المادة ويشران بالمبادئ الانسانية المثلى . كانا يجتمعان من حين الى حين في شبه صالة ادبية تديرها احدى الاميركيات المتاجرات فينتشاوران هنالك ويتطارحان الحواطر ما طاب لهما الى ان سولت المصلحة ذات يوم لتلك السيدة ان تحتلق اقاويل فارغة كان من شأنها ان فترت الصداقة بين الرجلين وقد كانا اذ ذاك محوري الحركة الادبية في المهجر فتباعدا على غير عداوة ظاهرة .

وتعاود الامين من جديد فكرة الرحلة الى بلاد العرب بعد ان تقلص ظل الاتراك وسهلت مواصلات التنقل ، لكنه اصبح اليوم غيره بالامس وقد بلغ الخمس والاربعين من سنه وقيدته مسؤولية الزواج !! اترافقه برتا في رحلته تلك ام تهزأ بمشروعه وتنعته بالخبيل ؟ سؤال طالما طرحه على نفسه ، فكانت جوابها التردد الواجب ، فيرجع الى التأليف حائراً وقد اعد كتابين للطبع مسلك الرؤيا وانشودة

المتصوفين (١) سلسلة من المقالات والقصائد كتب بعضها في لبنان وبعضها في نيويورك نشرتها شركة جمس هويت سنة ١٩٢١ فوسعا نطاق شهرته في عالم الفكر والشعر .

ومسلك الرؤيا، فصول متفرقة عالج فيها امين احوال الهيئة الاجتماعية والروحية الحاضرة فعزا اسباب اضطرابها في الغرب الى التكالب في سبيل المادة ثم استطرده قائلاً « ان المواعظ الدينية المبذلة والمذاهب الباطنية الغامضة واستحضار الارواح واسرار الحب باطلة كلها لن تصلح الحمال ولا سبيل لذلك الا بالرؤيا حيث ترى النفس خلاصها في ما يعقل ولا يرى » نظرية غامضة حاول امين ان يعرضها فكان فيها شاعراً اكثر منه فيلسوفاً ، تكلم تارة عن الجوهر الالهي في الحياة ، وحث تارة على الكمالات الروحية ، وقال اخرى باقتوران العقل بالروح . خواطر شعرية متفرقة لا تجمع بينها لغة منطقية ما . ومهما يكن من امر فان لهذه الابحاث مييزات قيمة لا تنكر ، اخصها ذلك الطابع الشرقي الصرف يبلوره تعلق لاهف بالحرية الروحية ، فيعزز احياءه الشعري ويوطد وقعه في النفوس « ان الذين يسلكون سبيل الروح سواء اكان ما يملكونه من حطام هذه الدنيا كثيراً ام قليلاً هم ابطال الانسانية وهم هم رسل التحرر وان لم يعتبرهم التساريخ بين اعظم رجاله ... ان الحرية الروحية هي حجر الزاوية لجميع الحريات فابكتاتوس العبد كان حراً وكذلك سقراط في سجنه والمسيح على الصليب » وقد تطرق الريحاني ايضاً في هذا الكتاب الى الاقانيم الثلاثة المتحدة « الشعر والتصوير والموسيقى » ثم الى الوطنية والوطن وكيف يفهمها الشرقيون والغربيون فقال : « ان محبة الوطن الاولي موجودة في المرء لانه جزء حي من ذلك الوطن . انما الوطن كتلة كبيرة ثابتة والمواطن كتلة صغيرة متحركة ... الغربي يعتقد انه جزء من الوطن او الحكومة اما الشرقي او الهندي فيعتبر نفسه جزءاً من الكل » .

اما انشودة المتصوفين ، فمجموعة قصائد مختلفة المواضيع ، جسمت شوق الشاعر الغريب الى بلاده وتوقه الى اللانهاية ، تجدد في « التائه » زفرة خائفة بعثها حزين مبرح الى لبنان ، الى جمال الطبيعة وبساطة العيش ، وتسمع في « ليانوس » لبنان يدعو الشاعر وعروس شعره اليه فيعمل الشاعر الواله حبيته بالرجوع . وهنا نذكر شيئاً من قصيدته البداية والنهاية ، نموذجاً لديوانه هذا وقد تجلت في اكثره الروحانية الصافية :

« قضي الامر يا ملوك ،

فالدّم دافق والسيف محطم وكذلك الصليب ،

لكننا ام الموتى الازلية تبتسم للمارة رغم حزنها القتال

انتم تنزلون في الاعماق ملوثين بالدماء ودخان الحروب وجيوشكم تتهمش
واعلامكم تنطوي ،

اما هي ، فتهدئ من عمل متوشحة بغبار الكواكب وتبذل حياتها مرة
ثانية لتغذي العالم » .

انها حالات امين النفسية المختلفة ، وحشته في الغربة ، نفوره من المادة ، التجذبه الى اللانهاية وحنينه الى مراحب الاهل تجلت ناصعة كلها خلال هذه القصائد التي قال ميخائيل نعيمة في معرض الكلام عليها : « ان الريحاني في انشودة المتصوفين شاعر ينطق بتموجات فكره ونبضات قلبه فحينما تسمع لقلبه نبضة تجدد في شعره جمالا وتسمع له رنة وتأتي على آخر القصيدة شاعراً انك قد اقتربت خطوة من الشاعر ولمست جانباً من كيانه . لقد شعرت عند مطالعة مجموعة الريحاني بحرقه والم . هوذا اديب من ادبائنا القليلين وقد اصبح اليوم وكأنه ليس منا فهو يكتب لسوانا وليس لنا وبلغة غريبة عنا والاهم من ذلك ان ما يكتبه بالانكليزية اجمل وافصح وابلغ من كل ما كتبه بالعربية فكأننا لم نحصل من مواهبه الاعلى القشور اما الجوهر فيحصل عليه سوانا » .

لقد ظهر جلياً في هذين الكتابين تأثير الحكمة البوذية والافلاطونية المستحدثة .

انها نفحة شرقية روحانية هبت الى الغرب بعيد الحرب الكونية الاولى فكان لها تيارات قوية في الادب العالمي تبعاً لناموس رد الفعل غذاها تصوف طاغور وباغي وما اليهما من كتاب ومفكرين تفرزت نفوسهم امام وحشية الكائن البشري . فكان طبيعياً ان يتأثر امين بتيار كهذا فيمده بشيء من روحانيته الشعرية وهو الشرقي المثالي الذي عرفنا .

ان الشهرة العالمية التي طالما سبها اليها الامين تمت له اليوم . صحف الامير كسين وانكلتره والشرق الاوسط تكتب عنه باعجاب ومجالس الادب تحتفل بتكريمه ، فيصدف عنها غير آبه يروم تحقيق حلم تمكن منه ، تحقيق رحلته الى البادية . عرض القضية علي زوجه فاستهجنه باديء الامر وخالته يهذي ولا غرو فقد قرأ معاً ما عانى الاديب الاسكتلندي تشارلس دو طي اثناء رحلته من مشقات ركوب الابل والخير وما قاساه من ضروب الاضطهاد والتعذيب في عنيزة والنفود كادت تودي بحياته ، فكان كلما حاول اقناعها بكرم العرب ورحابة صدرهم ساورها النفور الحائق واشتدت بممانعتها . اما رفاقه هنالك فاستنكروا مشروعه الاستنكار كله وهزؤا به جميعهم ، فلم يكن منه الا ان ازداد تصلباً برأيه وثقة بارادته واستمر يطالع نهماً كل ما اتصل به عن العرب واخبارهم من قلب البلاد العربية وشرقها لوليم بلغراف الى سياحة في بلاد العرب لجان بر كهارت الى الحج الى المدينة ومكة لرتشارد برتن الى التجوال في البلاد العربية لتشارلس دو طي والى غير ما هنالك من صحف ومجلات تناولت شؤون الجزيرة واحوالها لا يصدده اي عامل عن رغبته . واتفق ان قرأ يومذاك في مجلة مركيس ان رفيق جهاده قسطنطين بني « الذي ابعدته عنه الحرب العظمى وحرمة اخباره » هو في خدمة الملك حسين عاهل الحجاز فسرره الخبر وسرى عنه بعض الهواجس فكتب اليه تواً يسأله اذا كان يأذن

جلالة الحسين بالزيارة وهل يرافقه هو برحلته وعن غسبير ذلك من امور يتوقف عليها سفره .

ولا يفتأ امين يرغب برتا بمرافقته الى بلاد العرب ليأتيا منها الى لبنان «مورد الشعر» وهي الى ذلك مسترسلة في عنادها تأتي ان تترك نيويورك موطن شهرتها ومتذوقها فيها لتعيش كعامية القرويات في جبال لم تخلق لامثالها العصريات. ويرده اخيراً جواب قسطنطين يقول : « اتفق ان وصل كتابك الى جلالة الملك حسين في جده فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع وهو يرحب بك اذا حضرت اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز . . . والسياسة توافق ان تكون في فصل الشتاء . . . واني بكل سرور ارافقك حيث شئت اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها للأسباب المعروفة والسياسة تكلفك لاقل من خمسة جنيه « فيلمع الامل من جديد في فضاء احلامه بقضي نهائياً على حيرته فيعد عدته للرحيل قبل حلول الشتاء . . .

اما برتا وقد اخفقت لديها لغة المنطق وبعدها لغة الشعور لم تجد بداً من ان ترافق زوجها الى جزر الباليار حيث تزور صديقاتها وتحاول اللحاق به الى البصرة عن طريق الهند، وهنا تنتهي المرحلة الثانية من حياة ادبنا ، مرحلة انتاج وجهاد والم وتطور مستمر رأيناه في اولها دائماً على بلوغ الشهرة الصاخبة ليملاً فراغاً نفسياً لديه ولده مركب النقص ، يكتب ويعمل ويخطب تحت ايحاء الزهو الباطل ورأيناه متقلباً في مبادئه الفكرية متأرجحاً يعتنق اليوم مبدأ جفاه بالامس ليعود فينقضه غداً ويتبع سواه ومضطرباً متلوثاً يتلقى تأثير بيئته دون مقاومة. انه التلميذ السطحي المنتفع بحال نفسه خازن المعرفة يجرب كل حقول الفكر ويكتفي منها بالقشور. أثرت عليه ذلك العهد بنوع خاص المجاري الفلسفية السائدة في اميركة والعالم ولا سيما العلمية والايجابية ، والتطورية فحاول ان يهضمها وينسق بينها وبين ما اخذه عن روسو وسبينوزا فهضمت وسيطرت عليه حيناً وبلبلت عقله ، ولم يتخلص منها الا تحت تأثير بعض اخوانه الادباء في نادي الثريا الذين جعلوه يحس قصوره الفاضح

ويعمل على استكمال شخصيته . فحدث انقلاب عميق لديه كان منه ان صرفه عن
 البهرج الاجوف ووجهه شطر المثالية العليا في الحق والخير والجمال . وفي تلك
 الحقبة الانتقالية تعرف الى افلوطين ومتصوفي العرب وطاغور فعززوا ايمانه
 بالروحانية المثلى واثروا نهائياً على توجيهه العقلي فكان الشاعر الروحاني الذي عرفناه
 في جادة الرؤيا وانشودة المتصوفين وكان رمز والاشعاع اللبني عبر البحار
 والرسول المجاهد في خدمة الانسانية عامة والعرب خاصة لا يتوخى الا الخير
 المجرد المطلق .

* * *

العدد الثالث

رسول لبنان الى العرب

ان جنوناً في سبيل الحق والحرية خير
من الرصانة مع العبودية

- الريماني -

«ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك ترعجه وان شاخت
فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها ويحقق مسعاه» (١) انها احلام الصبا
المضطربة التي طالما خالجت ذهن الامين تتجسد اليوم قوة دافعة تحدوه على ترك
زوجهم ونيويورك واسباب الرفاهة فيها ليجازف بنفسه ويركب المشقات مختاراً
في سبيل انهاض العرب وتوحيد صفوفهم .

ودع الامين وزوجه اميركة ومن فيها وركبا البحر معاً الى جزر الباليار حيث بقيت برتا عند رفيقة لها وتابع المغامر طريقه الى مصر وقد ابرق الى اصدقائه فيها لاسيا الياس زياده وابنته مي ينبتهم بوصوله القريب ... وتعود الذكري بالريحاني الى عشر سنين خلت ويلقي الماضي وقره على منكبيه فيخشي العواقب ويضطرب ... اما كتبت اليه بالامس مي تعاتب شاكية غاضبة ?? فما يكون موقفه حيالها في مصر وقد طالت دورة الزمان مبرد الشعور وطوت عهد الغزوة وآمالها ...

بلغ الريحاني ولدي للنيل في ٢٧ يناير سنة ١٩٢٢ وقد ارخى شاربيه ولبس الطربوش المصري، فالتف حوله رجالات الادب والسياسة يرحبون بقدومه ونظموا لتكريمه سلسلة من حفلات الشاي اشترك في اكثرها من الشعراء والادباء احمد شوقي، خليل مطران، احمد تيمور، مي زياده، نعيم شقير، محمد لطفي جمعه، اسعد خليل داغر، انطون الجميل، عبد الحليم المصري، داود بركات، اميل زيدان وعدد غفير من رجال الدولة والوجاهة، القيت في اثنائها خطب وقصائد شتى (١) جمعت الى الترحيب بالزائر الكريم اقراراً بفضله على الادب العربي وتقديراً لميزاته . وفي تلك المناسبة اتبع للامين ان يدرس احوال مصر عن كثب في جميع نواحيها الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، فلمس تقدماً حثيثاً عما كانت عليه قبل سقره . المرأة ترفع صوتها مطالبة بالتححرر من التقليد الجائر، والبعثات العلمية تشكث الى اوروبة والصحافة تنمو وتزدهر وفكرة الاستقلال تبلور، بوادر مشجعة كلها على التفاؤل بمستقبل هذا الشرق شددت عزيمة المجاهد وغذت ايمانه بالاصلاح السريع .

(١) تعاقبت حفلات التكريم في دور يعقوب صروف، سليم سر كيس، باسم عبد الملك، مي زياده، الجامعة الاميركية، الامراء لطف الله، احمد زكي باشا، «في سفح الاهرام» الشيخ مصطفى عبد الزازق، اميل زيدان، نجيب صروف، الدكتور شحاشيري، الاتحاد السوري وقد جمع الرافعي ما قيل فيها في كتابه امين الريحاني في مصر .

ويجتمع امين بمي في دارها فتبعث الصداقة قوية بين من جمعتهما بالامس واليوم وحدة النفسية والاهداف ، اديب وادبية شرفيان تلقحا بالثقافة الغربية ، نشر احرية الغرب وكرزا بالروحانية المثلى ، يلتقيان من جديد . فكان عتاب وتكاشف ودي بينهما وكان تجديد عهد الولاء قبل ان يفترقا الى ما شاء الله .

ثم غادر المجاهد القاهرة في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٢ الى السويس ليجر منها الى جدة حافظاً لمصر واهلها ، في صميمه ، اعلم الآثار .

ويركب الامين متن احلامه من جديد ، يحققها بحزم وعزيمة ، يحمل الى اخوانه العرب رسالة لبنان التقدمية الحرة هائلاً بما تحبى له الاقدار ...

٢

وصل الرجائي الى البحر في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ، قتلن منها الى الملك حسين ينبت به بقدمه ثم بادر توأ الى صديقيه فؤاد باشا الخطيب وقسطنطين بني يستعلم عن مصيرهما ويطلعها على قصده بتفصيل فتحمسا لقضيته ، قضية العرب كافة ، وعاهداه على المساعدة جهد المستطاع .

ولما بلغ جلالة السلطان خبر قدوم الامين جاء بنفسه يستقبله مرحباً يقول : « وهلا نقطع فرسخاً اثنائي من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا » (١) فكان تعارف صريح بين المليك والرحالة مكنت صلاته المواجهات والاحاديث المتعاقبة في مناسبات واماكن عدة في ارض الحجاز . وقد تناولت هذه المباحثات على الاغلب غايات الامين من رحلته واحوال السياسة العالمية وتطوراتها الممكنة فضلاً عن مطامع انكلترة والولايات المتحدة في الجزيرة العربية .

وبعد ان ساح امين ورفيقاه اسبوعاً كاملاً في ارض الحجاز يحف بهم كرم المولى الهاشمي ، وافاه احد العبيد يحمل اليه كسوة عربية وخنجراً مكياً وقطعة مزر كشة بالذهب من ستار الكعبة ، هدية السلطان « فلبست القميص البدوية ذات الاردان ثم العباءة ، ثم عقال الذهب وتنطقت بالخنجر ورحت تواء اشكر صاحب الجلالة . فلما رأي في هذه الصورة بسط ذراعيه هاتفاً : يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني فاحسست من شدة التأثير بشيء غشي عيني فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد فما وجدت حتى الجيبة فيه ، فمسحت الدمع بردني فضحك جلالته وقال حقاً انك بدوي الآن »

آنس الحسين لدى الامين اخلاصاً للعرب واندفاعاً في خدمتهم عز نظيرهما فانفتح له مطمئناً وعرض عليه مشاكل بلاده ، يشاوره في حلها ، فكان هذا يبدي آراءه بدرايته المعهودة وكثيراً ما خالطتها الصراحة الحشنة التي لا تعرف مجاملات القصور . وبين الاقتراحات المختلفة التي عرضها الريحاني على الحسين بشأن توطيد السلام بين اسياد العرب وتعاونهم في سبيل العمران ، عقد معاهدة ثنائية مع الامام يحيى توطئة لمعاهدة اوسع نطاقاً تشمل كافة اسياد الجزيرة ، فرضي السلطان مشروطاً ان يعترف به الامام ملكاً على العرب ولما اتم امين مهمته لدى الحسين فكر بالرحيل ولكنه لم يشأه دون ان يزور مكة المكرمة ، فعمد عبثاً الى كل سبيل معقول ليستحصل على اذن بدخولها ، حتى اذا اعياه الامر ودع جلالة الهاشمي وادار وجهه شطر اليمن وقد اوصل يستأذن الامام بدخولها « جئت الى جده واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين بني وخطرت لي ان لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب سؤلتي ، فسافرنا انا في ثياب افرنجية وعقال احمّل جوازاً اميركياً وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي فاطلع على جوازينا واحتفظ بهما ثم اخذ عنواننا « وفي عدن قابلا بشأن السفر الجنرال سكوت وكيل بريطانيا العظمى والحاكم المدني والعسكري

هنالك فنصحها بقوله « ان السفر الى صنعاء محفوف بالاعطال خصوصاً اذا كان المسافرين مسيحين فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود » ولكن اميناً وقسطنطين وقد الف التعرض للاخطار لم يترددا ساعة في زيارة اليمن بل لبثا ينتظران على جمار ورود جواب الامام حتى اذا ابطأ وطال ابطاؤه توجهوا الى لحج يزوران سلطانها عبد الكريم فضل ويطلعان على اوضاعها وشؤونها وهنالك بلغتها بوقية الامام يستجيب طلبها مرحباً فاعدا عدة السفر « وقبل انبلج الفجر ركبنا سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة المحجية شمالا وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن وعند الغروب وصلنا الى قصر السلطان علي بن مانع في المسمى سلطان الحواشب » فواجهنا حيناً ثم خرجا يقصدان صنعاء ، يتوقفان في كل بلد يبلغاه ، يتفقدان احواله ويدرسان خصائصه ليدونا مذكراتها حولها في المساء .

وحالتان واعيان جريئان يتجشمان اخطر المصاعب بابتسام بلوغ غاية انسانية مثلى في خدمة العرب .

٣

بلغ امين وقسطنطين صنعاء عاصمة اليمن ، في ١٨ ابريل سنة ١٩٢٢ بعد مسيرة اسبوعين كاملين مغمورة بالمسقات ، فاستقبلها فيها الامام يحيى بحفاوة بالغة ومن ثم اخذ يستقهم بلباقة عن الغاية البعيدة التي يرميان اليها والحدذر الشديد يستبطن كلامه حتى اذا اطمان الى حسن نية محدثيه ورغبتهم الاكيدة في خدمة

العرب عموماً وتوحيد كلمتهم ، اخذ يفتح اليهما مختاراً ويطلعها تدريجاً على تصاميمه السياسية وعلى اوضاع بلاده فطالت المقابلات بينهم وتنوعت الاحاديث وقد تناولت عدا اهداف الريحاني في رحلته توجيه السياسة الاوروبية والاميركية الحالي في الشرق الاوسط واحلام الولايات المتحدة الاقتصادية وتطور العلاقات الدولية عامة . فكان امين ينتهز كل سانحة في حديثه ليبين الى سموه فائدة التفاهم مع الانكليز على صعيد المساواة وفعالية التعااهد مع ملك الحجاز وابن السعود من حيث الاستقرار السياسي «اني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً ولكنني اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . انما السبيل القويم هو في اتحاد ملوك العرب وامرائها اتحاداً لا يقدر بسيادة كل منهم ولا يحجب باستقلالهم المركزي التاريخي» (١) كما حاول اقناعه بان يفتح بلاده للتجارة الاجنبية وينشر فيها الثقافة والعلوم والصناعة الحديثة ، فابدى الامام تسككاً شديداً في البدء باستمرار الحال لكنه اخذ بعدئذ يتساهل قليلاً في وجهة نظره عقيب محاولات طويلة قام بها الامين ، ورضي ابن يعقد معاهدة ولائية مع الحجاز كتبها امين بنفسه وارسل نسخة منها الى جلالة الحسين مع رفيقه قسطنطين . ومكث الريحاني وحده في بلاد اليمن يطلع على طبيعتها ومواردها وعادات اهلها ومستوى رقيهم الاجتماعي وتأثير الامام وحكمه وعلى غير ما هنالك من دلائل مميزة خاصة ليكتب عنها في مذكراته ، فكان يستقيها من الامام مرة ومن الشعب مرات « من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف ، كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سوّالا بحسبنا سوّالا حياً متحرراً اذا اذن لنا بالاستعارة وحسبنا في بعض الاماكن ان نقف ساكتين صابرين فيحييتنا صاحب الامام مادحاً ويحييتنا عدو الامام قاذحاً فضلاً عن الفلاحين والجنود وقد عضهم البؤس والفقر فيحييتونا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من المعلومات ، فوصلنا الى صنعاء وعندنا خيرات من اخبار اليمن والزبود» (١)

طالت اقامة الامين في اليمن وبلغ احتفاء الامام به ، ولا غرو فقد قدر كل منها مواهب الآخر حق قدرها ، فكان الاعجاب متبادلا والاتصال وثيقاً ، فلما خطر للاديب الرحيل لم يشأ وليس لديه شيء عن ملامح الامام الذي احبه واجله ، غير الذكري والخيال ، لانه لم يكن يسمح بتصويره ، « فاستعنت بالقليل مما عندي من فن التصوير واغنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكانت هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام » (١)

وودع الامين الامام وصنعا مزوداً باوفر الوثائق يقصد الحديدة فبلغها بعد لأي وزار السيد الادريسي حاكمها الرشيد وبحث معه في وضع تصميم معاهدة رباعية تعقد بينه وبين الامام والحسين وابن السعود توطيداً للسلام وتثبيتاً لدعائم ملكهم فترو هذا حيناً ثم حقق رغبة الامين وقد احس اخلاصه المجرد واندفاعه المثالي في سبيل خدمة العرب ، ولم يمكث الريحاني هنالك طويلاً رغم الحاح السيد بل توجه الى الحج وكتب منها الى السلطان عبد العزيز يستأذنه بزيارة بلاده مخبراً امامه بغايات جولته وامانيه ، ولما طال انتظاره الجواب وعيل صبره ، قرر زيارة العراق فتوجه الى عدن يقيم فيها « تحت مرادق القبط في فم البركان بين اشباح الجدري والحمل ستة اسابيع ينتظر اذنًا بالسفر الى العراق » (١) حتى اذا ورده الترخيص انتقل من عدن الى بمباي يقصد البصرة فقصي في تلك المدينة اسبوعاً كاملاً قلق البال حائراً وقد احس شبح الحيلة الرهيب يتجسم امام عينيه ويكاد يحجب دونها الرجاء . الانكليز والتعصب والمناخ السيئ والامراض الفاشية تواطأت كلها على عرقلة مساعيه . ولكن اميناً الذي لم يعرف للوهن معنى لم يتراجع امام هذه المضاعبات المستمرة بل كان له الكلمة الاخيرة عليها وواصل سبيله بابتسام ...

سافر امين من بمباي الى العراق ومكث فيه نحواً من شهر قاسى خلاله الحمى ثلاث مرات . فلما وافاه جواب السلطان السعودي يرحب بقدمه ركب الباخرة الى البحرين وقد علم ان السلطان هنالك وارسل اليه رقيقة يبلغه وصوله ويسأله هل يوافيه حيث هو ام ينتظره في العقير الى ان يعود فاجاب السلطان ان لا رأي له البتة بهذا الشأن ، فقصد الامين النفود والتقى فيها السلطان عبدالعزيز واعتذر اليه عن ابطائه فرد جلاله السعودي مبتسماً يقول : « اما نحن فما ترددنا ولا ابطاناً في الجواب وكيف نرد من ينبغي زيارتنا وهو من حميم العرب . قالوا لنا انك امير كي جئت تبشر بالدين المسيحي في ابلاد العربية وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت بغني الامتيازات وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف وقالوا غير ذلك فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه واذا كان فيه ما ينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع ونحن نعلم يا حضرة الاستاذ بمهمتك بارك الله فيك .

فاستأذنته اذ ذاك ان اخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي فقلت : وقد تم الاول بمشاهدتكم وسيتم الثاني بما ساكتب ان شاء الله فيما شاهدت اما الثالث فلا يتم الا بمساعدة ابن سعود واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق الا باجتماع امراء العرب كلهم بالتعاون اولاً والتفاهم فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم »

ودار الحديث الطويل بين ابن السعود وامين عن الرئيس ولسون واميركة اولاً ثم انتقل الى القضية العربية واتحاد اسيادها الوثيق فادهش الاديب ببلاغة السلطان وحدة ذكائه وصوره باعجاب بالغ قال : « السلطان عبد العزيز طويل القامة مفتول الساعد شديد العصب متناسق الاعضاء وهوا اسمر اللون اسود الشعر ذو حلية خفيفة مستديرة وشارب يقضه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون يلبس

في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء وفي ايام الشتاء قنابيز من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو ينتعل ويتطيب ويحمل عصاً من الشوحط طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه على تشكيل كلماته اذا صحت الاستعارة وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من الاعوان ، له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة وله عينان عسلتان تنيران اماكن العطف واللفظ ساعة الرضى وتضمران في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى وفي الحالة الثانية كالحديد يتقلص فيشتد فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء .

« اجل ان ابن السعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير فيذهب العطف من ناظره ولون الورد من شفتيه ثم في اقراره يستحيل النور ناراً بيضاء فهو اذ ذاك رهيب » (١) .

ويقوم الريحاني في نجد ستة اسابيع « كان يزوره السلطان في منزله كل ليلة فيباحثه في مواضع شتى نجدية وعربية وعامة وهو دائماً في حديثه فصيح صريح » . بيد انه لم يكتف بالاتصال بسلطان نجد وحده بل اتصل بذوي الشأن كلهم وبمختلف طبقات الرعية يطلع على احوالها الاقتصادية ومستواها الاجتماعي ونزعاتها السياسية فادهشه اجماعها المطلق على الوفاء الواعي لابن السعود والثقة التامة بعدله ونبله مكن فيه رأيه بالمجاهد العربي الاكبر وسمو قصده . ولما انهى الريحاني جولته في صميم نجد واهلها والتقط المعلومات التي اراد ودع جلالة السلطان السعودي آسفاً يحمل منه اجل الذكريات وقد ايقن من نجاح سعيه « خرجنا من الرياض اثني عشر ركباً وفينا الرفيق والحارس والحادم والطاهي والقهوجي وراعي الاباعر قاصدين الكويت » فلما بلغوها خرج يستقبلهم حاكمها سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح مع حاشيته وبعض اسرته فمكث امين في ضيافته مدة يباحثه في القضايا العربية العامة والخاصة ويتفقد اوضاع البلاد في مختلف نواحيها وعلاقاتها مع العراق ونجد ويدرس عقلية الشعب ورغائبه ، وقد استوقفت انظاره بنوع خاص تجارة اللؤلؤ هنالك

وصناعة السفن فضلاً عن الموقف السياسي وأهمية النفوذ البريطاني في إدارة المشيخة. وفي الكويت اجتمع أمين صدقة بالشيخ خزعل أمير نوبان وسردار عربستان وقد كان يتوي ان يعرج الى المحمرة ، في طريقه الى البصرة ، ليقابل سموه فدار الحوار بينهما طويلاً حول مقاصد الرحلة ، فاعجب هذا بتساهله الصريح في الدين والاجتماع وتوطدت صلات التعارف بينهما ، وغادر أمين الكويت يقصد البحرين حيث اتصل بشيخها أحمد بن عيسى وحل عليه ضيفاً . وبعد ان اطلعه على مهمته وما وصلت اليه مساعيه ، سأله عما اذا كان يلي دعوة الحسين الى اجتماع يعقد في مكة لبحث شؤون العرب فاجاب « اذا لبي سلطان نجد الدعوة فاننا نلبيها » واغتم الامين فرصة وجوده في البحرين ليستقضي عن حقيقة اللؤلؤ ، اهم مصادر الثروة المحلية ، فتبين له ان مغاص البحرين هو الاول من نوعه في العالم . ولما اتم جولته ، توجه الى عدن ليجر منها الى العراق « اجرت من عدن اقصد الى العراق » فلما وصلت الى بباي التي لا بد من التعرّيج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهند لقيت في قنصلية اميركة كتاباً من الديوان الملكي في بغداد وجهه اليه امين سر الملك فيصل باسم صاحب الجلالة يرحب بزيارته ، فسافر الى بلاد الرافيدين للمرة الثانية بعد ان انجز رحلته في الجزيرة وأدى رسالته الاصلاحية على اكمل وجه .

٤

اجر الامين من بباي الى البصرة على باخرة انكليزية من بواخر الخليج ، هائماً شارد اللب لا يعلم هل واقفه اليها زوجه كما وعدت ام اخلفت بقولها . وكيف لا يساوره القلق بشأنها وقد انقطعت عنه اخبارها منذيف وسنة ولم يعلم لذلك سبباً غير صعوبة المواصلات البريدية . ولما بلغ البصرة قصد للحل الوكالة البريطانية

يستعلم عن برتا فلم يعرف عنها شيئاً مطلقاً رغم المحاولات والتعب ، فاستولى عليه الخنق الشديد واستدعى حوذيّاً « ساق جواده الاعرج يجر عربة مكسرة فيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني » حتى اذا بلغ محطة السكة الحديدية استقل قطاراً الى بغداد حيث توجه الى صديقه امين كسباني ليذهبا معاً الى زيارة عاهل العراق وقد اخفى كل ما كان يؤرجحه من الاضطراب الباطني ، فاكرم السيد الهاشمي وفادتها وانزلهما في ضيافته . ولما استقر بها المقام اخذ امين يسأل صاحب الجلالة بتفصيل عن تصاميمه السياسية المقبلة وعن علاقاته باخوانه ملوك العرب والدول الاجنبية وكثرت بعد ذلك زيارات الامين لفصل ودارت اثنائها مباحثات ضافية حول توثيق التعاون بين الاقطار العربية كما تعددت اتصالاته بالوزراء والاعيان ورجال القلم ولاسيما الرصافي والزهاوي يدرسون معاً احوال الاقتصاد والسياسة والمجتمع والثقافة في تلك البلاد . وقد اقيمت في بغداد سلسلة من حفلات الشاي التكرمية على شرف الامين ، نظمت اولها في دار المعلمين حضرها ممثلو الحكومة واعيان البلاد وادباؤها تكلم فيها الرحالة عن التربية الواعية وفوائدها فتناول اسبابها ثم نتائجها (الاستقلال الفكري ، الاعتماد على النفس ، حب العدل والانصاف ، تمرين الارادة ، صدق القول والعمل) وتلتها حفلة الحزب العراقي الحر التي تكلم فيها معروف الرصافي وجميل صديقي الزهاوي شعراً يرحبان بوصول الغرب الى الشرق والشرق الى الغرب ثم تعاقبت الحفلات الخطابية في المعهد العلمي ، مكتبة السلام ومنتهى التهذيب حتى اذا هم الامين على ترك البلاد العربية نهائياً القى قصيدته للنثرية الاخيرة في المعهد العلمي ببغداد يخاطب تلك الاقطار قاطبة باسم الحرية يقول : « هي الحرية جاءت تزور البلاد العربية وتزرع فيها بذورها الطيبة الصفية ، ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض وبكت في تهامة بكاء اليائس وضحكت ثم تأوهت في اليمن وجلست تستريح في العراق . هي الحرية تخاطبك ايها البلاد العربية . هي الحرية تخاطبكم

(١) جمع هذه هذه الخطب رفايل بطي في كتابه - امين الريحاني في العراق - وذكر

تفاصيل الحفلات والتعاليق عليها .

يا اسيادي اصحاب العظمة والجلالة . ايها الملوك والائمة والامراء والسلاطين ان في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الامة والكلمة لكم فهل انتم بها ناطقون . الكلمة (الاتحاد) فهل انتم في امر واحد متحدون ؟ والامر الاول الجوهري (الصلح) فهل انتم بالصلح راغبون واصلح اساس الوحدة العربية ، فهل انتم في سبيل الوحدة مجاهدون ؟ والوحدة العربية اساس الحرية القومية فهل من حرمة تعززون . وحرمة الامة لا تعزز بغير العلم الصحيح . فهل من معاهد للعلم تشيدون ؟ . اذا كنتم تفعلون فاني الحرية اقيم بينكم وابشركم بمستقبل مجيد والافساعود الى اقصى البلاد والبس على بلادكم العزيزة الحداد .»

وقبل ان يغادر العراق ، زار كربلاء والنجف ثم عاد الى الفريكة بعد اربعة عشر شهر قضاه في الجزيرة قرير العين راضياً عن عمله ، ناقماً على زوجه ، وقد نسي المشتات والعراقيل التي اعترضت سبيله .

« زار كثيرون من الاوروبيين ، سياسيون وجنود وعلماء بلاد العرب . طاف بر كهاردت وبورنون اطراف الحجاز ودوتي انحاء الجزيرة الوسطى والغربية كما اجتاز فليي الصحراء من خليج العجم الى البحر الاحمر ، انما قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المؤاتية للتعرف الصحيح بتلك البلاد واحوالها كذلك التي اتيت للسيد الريحاني » (١) .

« لقد اختلفت غاية الامين كثيراً عن غاية الاعلام الذين تقدموه في هذه السياحة . فبلاد العرب لم تكن في عرفه نجداً مرتفعاً يجب استكشافه وملوكها تحفاً حية مخبئة وراء حواجز يتخطاها المغامرون ثم يعودون مباهين بما عرفوا من مجاهلها بل كانت بلاد بشر احياء يتكلمون اللغة التي تكلمها في صغره ، بلاداً لم يكن يجمل تقاليدها ،

بلاداً أراد ان تغذي مواردها الحيوية مدنية عربية قوية عوض ان تعزز المنازعات والدسائس بين العشائر لاستعلاء احداها على الاخرى الى ان يفني بعضها بعضاً» (١) .

نعم اراد الريحاني في رحلته هذه ان يجمع شمل العرب الشثيت يوحد كلمتهم ويعلي شأنهم بكل ما اوتي من كفاءة فراح يركز بالحضارة بينهم والثقافة والسلام فكان خير رسول لنهضتهم الحديثة في جميع المناحي وافعل العاملين واخلصهم في سبيل توطيد التعاون بين مختلف اقطارهم . « اني رسول سلم لا رسول حرب وثورة في البلاد العربية جئتها مبشراً بالعلم والتمدن لابلوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز لا والله ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال نعم ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن » (٢) .

وبوؤب رسول لبنان بلحيته وعباءته مطمئناً من اتمام مهمته الى واديه العزيز ، يحمل اثنى التحف والهدايا والذكريات ليؤدي الى العالم حساباً ضافياً عن رحلته العجيبة ، وقد ترك لدى اسياذ الجزيرة وقبائلها خير ما يترك زائر كريم .

٥

وصل الامين سالماً معافى الى الفريكة ، الى حضن ام امين بعد غيبة ناهزت
السنين العشر ، فنظمت في بيروت احتفاء برجوعه حفلة خطابية على مسرح

(١) عن اليزابت مككلم ، صوت عربي

(٢) ملوك العرب

الكورسال في ١٩ ايار سنة ١٩٢٣ (١) ختمها بقصيدته النثرية - العود الى الوادي -
افرج فيها فيض حنينه الى وادي الطفولة حيث يرقد الشطر الاكبر من
ماضيه .

كان امين في الفريكة ينقطع عن هموم الدنيا ومشاغها قاطبة ليعيش آمناً بين
ذراعي الطبيعة ، ولكنه لم يستطع هذه المرة ان يفرض مشيئته على الوسواس
وقد بلبت رأسه ولا غرو فان برتا صدمته في صميمه ، برتا زوجه العزيزة وعروس
آماله بالامس تنكث بعهدا ولا تلحق به الى البصرة كما وعدت . لقد حاول جهده
ان يوجد لها مبرراً معقولاً فلم يفلح فأقعداها المرض عن المجيء ، وبوسعه الاعتذار ام
حلت بها كارثة ما والامر مستبعد غريب ... لا لا ، انه كبرياء المرأة السماء يطعن
في اعماقه لديها فيعلن الانتقام ، الم يؤثر هو رسالته على حبها فيما مضى فهجرها ولم يبال ؟
فلم لا تبادل بدورها المثل وقد طال الزمان والمسافة بينها ... انها لا بد في اميركة
منصرفه الى فيها لا تأبه لعقد الزواج ولا تحترم عهداها المقطوع ! . فوجه اليها كتاباً
قاسي اللهجة يعاتب فيه مرة ويؤنب مرة ويثور مرات . فلم يلبث ان ورده الجواب
بعد حين وقد كان رد الفعل ساماً بليغاً لدى الاميركية الجامحة ، فسددته الكيل
اكيلاً وكاث جواب امر وجواب اشد مرارة وكانت القطيعة بينهما . عقليتان
مختلفتان تتصادمان ، عقلية شرقي يأبى خروج المرأة عن سلطة الرجل وعقلية
غربية تدين بالمساواة المطلقة ، فامين وان قضى زهرة العمر في اميركة
واقبس جل عوائدها بقي شرقياً محافظاً فيما عني المرأة يريد خضوعها
لارادة الزوج ...

ويلجأ الامين الى عزلة مطلقة محاولاً ان يتناسى ماضيه ، وقد اعرب عن ظمأه
البالغ الى التنسك في كتاب وجهه اذ ذاك الى سليم سر كيس قال فيه : ، جاءني
زائراً هذه الساعة رئيس احدى الرهبنيات العام فوقفني فوقفت عند باب الهيكل

(١) نكلم فيها داود نخول ، الدكتور حسن الاثير ، نبلا ابو (اللعج) ، فيلكس فارس ،

ماري يني ، ودع عقل ومعروف الرصافي

تجملًا وقد علمني العرب اكرام الضيف وفي نيتي ان ادخل الدير بعد اسبوعين
ترويضاً للروح والرهبان يسمونها رياضة روحية فاقم هناك في عزلة الرهبان وفي
ظل اعدائي الكهان واكون ولو اسبوعاً واحداً مسيحياً تقياً فاحب اعدائي
وآكل معهم وانام تحت سقفهم واصلي صلاتي في كنيستهم .

وفي عزلته تلك كان امين يجمع المذكرات التي دونها في ليلائه اثناء رحلته
الاخيرة لا يتصل باخصائه الا في مناسبة ذات شأن . فلما زفت نجلا ابنة صديقه
سليم سر كيس الى الدكتور رائف نده لم يتروّد في ان يكتب اليها من صومعته مهنئاً
معتذراً عن ابطائه وقد استمد من ذكريات الامس موضوعه الشعري الانيق قال :

« جئت الآن وان كنت بطيئاً فالقلب سباق ، احمل اليك من ازهار الوادي
ازكي التحيات ومعها كلمة من ناسك الوادي املتها الحياة نفسها وخطتها يد
الحب والاخلاص .

« ذكرتك امس آنسة تزهين في ظلال القديم الجليل من الحياة تحت سماء مصر
الباهرة وذكركت قبلاً وانت تتفتقين وتركضين في ظلال الجديده العظيم تحت سماء
نيوبورك القاظه واني لاتصور في نفسك محاسن البلدين ، ينعكس في عينيك نور هذه
الشمس التي تطل علينا من وراء صنين وينتشر في صفائك وفي روحك شذا زنبق
الوادي وطيب احراج لبنان »

كانما الوادي ولبنان سيطرا على شعوره الباطني وحسه سيطرة جعلته يرى فيهما
ينبوع الجمال الصرف .

تعود امين في صومعته ان ينهض عند بزوغ الفجر ، يستحم بالماء البارد ، يرتدي
ثيابه كما لو نوى السفر ويجلس الى مكتبه حتى الساعة الثامنة ، ساعة يتناول
ترويقته الخفيفة . ثم يعود اليه فيلازمه حتى الغداء عندما يتوسط ام امين وسعدى

يداعبهما ببشاشته المعهودة ويأكل ، اذا خلت القاعة من الضيوف . وبعد الغداء يتمدد حيناً على كرسي من القش عريض الجانبين فوق شرفة تطل على الوادي قبالة صين . يأتيه الزائرون قبل الظهيرة فلا يقابلهم بل تدعوهم سعدى الى الانتظار ريثما ينتصف النهار فيتعدون معه ثم يتحدثون ما طاب لهم . وقد عرف الريحاني بحسن ضيافته ولباقة حديثه . فكان لا يجامل ولا يوارب ولا يتورع مرة عن ان يقول الحقيقة وان قارصة او يتهمك بالسخافات ويشور على الرياء . اما اذا خلا المنزل من الزائرين فيعود الى مكتبه بعد استراحة قصيرة يستأنف عمله الى الساعة الخامسة ، فيتناول الشاي عند ذاك على الطريقة الانكلوسكسونية ، ثم يدخن غليونيه وينزل الى الاسطبل يحمل في جيبه قطعاً من السكر الى « نورا » (١) فيلقمها بيده ويمسح بمنديله دمعا ثم يستوي على صهونها ويخرج الى التنزه في الغابات المجاورة .

وبعد العشاء كان يطالع ما ورده من رسائل الادباء والخلان الى ان يعيه الجهاد العقلي فيلعب مع ام امين وسعدى « بالباسرة » ويحدثهما عن مغامراته الجريئة الطريفة ...

حياة نظامية هادئة ساعدته كثيراً في تحقيق مشاريعه الكتابية ، فلم ينقض العام على عودته من الجزيرة حتى جاز شوطاً بعيداً في كتابه ملوك العرب ونقح بعض مقالات كتبها هنا وفي اميركة نشرها في جزئي الريحانيات الثالث والرابع فجاءت حلقات متشابكة في سلسلة الريحانيات الاولى تسجل مظاهر نشاطه في تلك الحقبة التي تلت ظهور الجزئين الاولين .

انه المعمم الواسع الاطلاع يواصل نشر ما راقه من افكار ومذاهب وازياء حسب عادته السابقة وقد جهل تطور البيئة في بلاده بعد الحرب وانفتاحها الى الادب الغربي في جميع الوانه .

اشتمل جزءا الريحانيات الثالث والرابع على اجاث مختلفة كسابقيهما ، مقالات
تعميمية ، محاضرات ، مراث ، خواطر ، حكم وشعر منشور ، لا رابط معنوي
بينها البتة . تقرأ فيها عن الجوامع مثلاً وما توحى بساطتها من الخشوع فاذا بك
فجأة مع المؤلف في الاندلس او في « حقول الفتوة » او في نيويورك « مسرح
الاهواء والذات والاطماع » او في مصر والعراق . منتخبات لم تتميز الا بقصائدها
النثرية التي انتظم وقعها الموسيقي وقويت نفحتها الشعرية فجسمت على نوع ما
وأى صاحبها في الكاتب اذ قال : « ان الكاتب ايضاً من كاث حسن الذوق في
الفنون الجميلة كلها في الغناء والموسيقى والشعر والنحت والتصوير فيستعمل الالفاظ
كما يستعمل العواد الاوتار وينظم المعاني كما ينظم الرسام الالوان ويمزج ادبه وعلمه
وخيله كما يخرج صانع العطور عطوره فتجيء فيها روح الفنون كلها اي التناسب
والتوازن والتباين في التشابه خلا الابداع نظراً وفكراً واسلوباً وهذا
لعمري الجمال بعينه بل هذا شيء من الكمال في الآداب » فغلبت عليها
الاناقة الفنية وسلست عباراتها وانسجمت مبانيها مطاوعة قصده .
اما نظراته الفلسفية الاجتماعية فقد تجحرت هنا من سيطرة التيارات الفكرية
الفاضة في ريجانياته الاولى وتجانست بعض الشيء . وهي ترمي في معظمها الى
التوفيق بين مدينتي الغرب والشرق في مدينة مثلى اسما الثقافة الصحيحة
« حمدا الشرقيون والغربيون لو اخذ بعضهم عن بعض ما هو جميل في اديانهم صحيح
في آدابهم سام في فنونهم سليم في عاداتهم سديد في عقائدهم عادل في احكامهم
وشرائعهم . . . ان آداب والتهدب والفنون هي القوى الادبية الروحية التي

يتألف بها العلم والذي يقرن فيها بين بديهيات الانبياء ومعقولات العلماء ومنتزج فيها روح الحقيقة وروح الجمال فننبثق منها اشعة السلم والحب والاخاء . فالحدود الجغرافية والفواصل العرقية وما اليها يجب ان تتوارى امام رابطة التعاون الانساني ليسود الامن ويتغرز التفاهم « فما الناس الا امة واحدة تجمعهم جامعة الآداب والفنون ودين واحد شامل قوامه الابوية الالهية والاخاء العام » .

بيد ان الاقبال على قراءة هذين الجزئين من الريحانيات كان عادياً جداً رغم تحسن ديباجتهما وخلق التواكيب من الرطانة الغربية ، ذلك ان الريحاني تعود لعشر سنين خلت ان يكتب لشعب قصر اطلاعه على اللغة العربية يقبل كل ما يكتب له باعجاب وتهليل فتروج كتبه بسرعة . فلما تسربت الثقافة الغربية الى هذه البلاد واوقظت لدى الشبيبة روح النقد والغربة تضاعلت سيطرة الامين وفقدت مقالاته التعميمية ما كان لها من قيمة بالامس فلم يبق من الريحانيات الا الفصائد النثرية التي قوي ابحاؤها النغمي وسمت مغازيا .

فتوالم الامين الحبية المفاجئة وتصرفه الى العناية الجدية بمادة - ملوك العرب - وقد لمس حساً نقدياً رهيفاً لدى القراء لا يسهه الا ان يجاريه اذا شاء ان يحفظ مكانته في الادب العربي وحظوته لدى النشء المثقف .

واخيراً صدر ملوك العرب سنة ١٩٢٤ ، ذلك الكتاب الذي كلف الامين وضعه تجشم المصاعب التي ذكرت ، مجلدان ضخمان (١) تخللتهما الحوارط والرسوم اوضح المؤلف في مقدمتهما ما حداه على القيام برحلته والاهداف التي رام تحقيقها ثم تناول في اولهما الحجاز ومليكها حسين بن علي ، اليمن وامامها يحيى بن حميد

الدين ، عسير وسيدها الادريسي لحج وسلاطينها والنواحي التسع المحمية ، وفي الثاني ، نجد وسلطانها ابن السعود ، البحرين وشيوخها آل خليفة ، العراق وعاهله فيصل الاول فدرس احوال تلك البلاد وامكانياتها بتفصيل وامعان وصور ما شاهد فيها وما اثر فيه منها بأسلوب رشيق مبتكر راوياً احاديثه مع الاسياد والعامه ببساطة بليغة وذوق رهيف .

ريبورتاج ، غزير المادة طريف النهج ، تجلت فيه بنوع خاص ، مقدرة الريحاني الفنية في سرد الرواية ، لا سيما دقة الملاحظة ، براعة الاستنتاج ولباقة التصوير . طريقته الكتابية جاذبية فكها ناتئة الصبغة المحلية متنوعة المواضيع ، فيينا تراه يصف قصر الامام اذا به تنتقل فوراً الى وصف القات وكيفية استعماله او بقص نادرة واقعية نظرياً ... لقد اراد ان يكون شاملاً في دراساته هذه لا يبقي زيادة لمستزيد » في هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهّم العرب خصوصاً والاسلام عموماً والتي تهّم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدها القارئ في مكانها من البحث . اما الذين لا تهّمهم السياسة بقدر ما يهّمهم العلم والادب واخبار الاسفار فقد خصصتهم بقسم مما كتبت وقد اتخذت في ذلك اسلوباً يقرب من القارئ ما شاهدت بعيني وسمعت باذني ولمست بيدي فيتمثله اذا تم القصد الفني حياً لديه . اجل حاول الامين ان يشر كنا برحلته الممتعة جهد المستطاع فطوع الكلام للمعنى في اختلاف حقوله حتى جعل من اخباره صوراً نابضة فارضة . فاذا سمعته مثلاً يصف الامام يحيى سيد اليمن الجليل خلت نفسك تدخن القيات مع سموه « دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون عالي الجبين مستدير الوجه قائم . له قم كقم الطفل صغير بارز الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روعة وله لحية سوداء قصيرة مستديرة تحلها خيوط من الشيب ويلبث قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ولعمامة البيضاء الكبيرة ذوابة تكاد تصل الى

أذنه . دخلنا فإذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجيبة والى جنبه الوسائد يتكىء عليها وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له « ولا اخال ان لوحة زيتية او رسماً فوتوغرافياً مهما بلغت دقته يظهر الامام بشكل اوضح من هذا واوفى واروع ، لقد ساهم امين الرسام والشاعر والخطيب والممثل والكاتب والسياسي والانساني في وضع هذا الكتاب فلم يكن مرة واحدة هو كله كما كان فيه . والريحاني هنا لم يقتصر على وصف ملوك العرب وحدهم كما يتبادر لاول وهلة ، بل تناول الشعب كافة على اختلاف طبقاته من قبائل رحسسل ومقبة وامراء ورعاة وخدم وطهاة واعطى نماذج عدة عنهم مبيناً مقدار وعيهم لامور الحياة وحقائق الكون دارساً احوال معيشتهم نافذاً الى اعماق رغائبهم » كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائماً لجميع الناس فاسمع الشريف والبدوي والجمال والجندي والتاجر والسياسي وادون احاديثهم « فاسمعه رعاك الله يروي ما اخبره به السيد محمد رفيقه الى حضرة الامام عن العقلية اليمنية وقربها من الطبيعة الاولى قال : « لا يزال اهل اليمن وعسير وحشيين لا يثق الواحد منهم باخيه ولا يركن اليه ، حياتهم خوف دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضما اليه ، هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن قد رأيت بعينك ، الناس كلهم مسلحون وكلهم يقاتلون ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ماقية هذا واخذ بيده فنجان القهوة ، ولكنه لي هو حققي ، فاذا اخذته مني . اغتصبته وما سمعت احتجاجي اقاتلك استل عليك هذه الجنبية اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن اذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلهما وقد انقسموا حزينين الى المتقاتلين ، قتشب في القرية نار الحرب وعندما تنطفئ يتساءلون وما السبب في القتال بين فلان وفلان ، يقاتلون اولاً ثم يستعلمون هذه طريقتنا في اليمن . نحارب حتى اهلنا يحارب الاخ اخاه والابن اباه فاذا كانت هذه حالنا بعضنا مع البعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب : « الست ترى في ذلك الصراحة كل الصراحة في سبيل اظهار الحقيقة تؤيد قوله ما جاء في المقدمة

13 Jan. 1951
مطبعة
١٣٩٩

« فها انا اذن في هذا الكتاب ولا فخر ولا اعتذار ، اعرف اسيادي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات وليؤكد اسيادي ملوك العرب ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداينة ولا في النقد تشيع او تحامل انما غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام وانارة الازهان » .

كتاب ، قيم في غايته ، سائغ في صيغته لم يؤخذ عليه الا شيء من النقص في الصقل والانسجام في بعض ابوابه والانحراف عن الموضوع في الاستطرادات التاريخية ربما بروته سرعة الاخراج . وعلى الرغم من هذا ، حقق ملوك العرب امنية الامين فجاء كما شاء واسطة التعارف الصحيح بين الافطار العربية وبالتالي مهاداً لتقاربها وتعاونها وبياناً صريحاً للعالم اجمع عن حقيقة العرب وبلادهم ، ينبض حياة من حياة الامين وقد عاش كل ما عرض ووصف وقال ، فتوهم القارىء انه يرافق الرحالة كظله ويشاهد بنفسه الجزيرة (١) واهلها حادياً على ظهور العيس .



انتشر ملوك العرب انتشاراً سريعاً في اقطار هذا الشرق فترجمت فصوله الى أشهر اللغات العالمية (٢) وتناولته اهم صحفها بالنقد والتعليق والتقرير (٣) ولا

(١) كان الريحاني يعتبر العراق شطراً من جزيرة العرب

(٢) ترجم الى ١٦ لغة .

(٣) عرضت عليه مجلة آسيا الاميركية ٣٠٠ دولار مقابل كل فصل يترجمه لها من

ملوك العرب .

غرو فالككتاب ، من ابن اخذته ، فريد من نوعه في الادب العربي فضلاً عن انه امن حاجة ماسة من الوجهة السياسية ، عهد تاقت البلدان العربية الى التحرر الناجز والتعاون الاكيد . وكان - ملوك العرب - لم يستنفد مادة الريحاني في رحلته فانصرف يهيء سواه في العربية والانكليزية يودعه ما تبقى في صميمه عن العرب واحوالهم ، فقع يعمل بجهد وثبات في الصومعة ، مقرر الاغز ...

وهناك كان يشعر ببلء ذاته وانطلاق مشيئته على اكمل وجه فيكيف وقته حسبما يروم هو لا كما ترومه مجاملات المجتمع وينفسح له مجال العمل رحيباً هادئاً. انه الاديب الواعي وقد اتم بناء شخصيته كما تخيلها في صباه واحس مدى امكانياته وعمق فعله يكتفي بثروته الباطنية ويستغني عن الغير . او لم يحقق في ذاته ذلك الفوق الانسان الذي اقتبس فكرة بعيدة عنه من نيتشه وكتب بشأنه في ريجانياته الاولى؛ انسان استثمر لديه كل المواهب في اقصى حدودها الممكنة ، فراح يعطي للعطاء المجرد حليماً سمحاً نبيلاً !!

قبيل الصباح ، شتاء وصيفاً . الى مكتب ميزه الترتيب الانيق توسطته جمجمة ناطقة بمقارة الدنيا كان يجلس الامين المتزن ورأسه بين يديه يستد افعكاره في فضاء من السكون الموحى . يسمع جرس الكنيسة يدعو المؤمنين الى الصلاة فيهرول الى والدته الزائمة في غرفة ملاصقة ، وقد اثقل العمر سمعها ، يلامس جبينها ويوقظها مبتسماً يقول : « قومي يا ام امين بدأ القداس » فتنب العجوز مذعورة تحمل سبحتها وتمد باعيا نحو السماء ضارعة تنادي باعلى صوتها « وفكك الله يا بني كل ساعة » وامين يراقبها مطرقاً ذاهلاً تحت تأثير السداجة البريئة وقد اخفى دمة ثائرة في طرف عينيه .

كثيراً ما دعي الريحاني، تلك السنة سنة ١٩٢٤، الى لقاء المحاضرات والاحاديث عن رحلته الاخيرة في الوست هول وفي غيرها من معاهد بيروت وسائر المدن المجاورة فلي مختاراً وتكلم باعتباط عن جولة عاش كل وقائعها وعن شعب احبه الحب كله وتفاني في سبيله . وتشاء الظروف السياسية ان تخرجه مدة عن عزلته

الحصبة في اواخر السنة اثر النزاع الذي استفحل امره بين الحجازيين والوهابيين،
 فيسافر الى جده يتوسط بين المتخاصمين حقناً للدماء وبفاوض العاهلين صديقه بشأن
 الصلح، حتى اذا عاهداه على تحقيق مساعيه، ترجع الى الفريكة في اوائل سنة ١٩٢٥
 يتم تاريخ نجد الحديث الذي نشر بعض فصوله في مجلة - الكشف - ويبيدي
 خواطره وآرائه في الصحف وقد كان قطب الحركة الفكرية في الشرق الاوسط
 كما كانه جبران في اميركة، يتوافد اليه الادباء في اوقات استقباله ينفتحون
 اليه مطمئنين يستشيرونه في شتى امورهم ويعرضون عليه انتاجهم طالين رأيه،
 فيعطيه صريحاً خشناً احياناً، مشجعاً ما كان حسناً منه شاجباً قبيحاً. ولكم سئل
 آنذاك ان يقدم كتباً جديدة معدة للنشر فقبل مرة ورفض مرات بعد ان طالها
 لا يراعي في ذلك الا قيمة المخطوط وحدها. وقلم ظهر وجهه او اديب او متأذب
 في هذه البلاد او في الاقطار الشقيقة لم يحج الى الفريكة يحطب ود الامين الناسك،
 وهو الى ذلك مثال الديمقراطية الكبير لا يتشامخ ولا ينتفخ بل يزداد انضاعاً ووداعة
 وكفراً بذاته. او ليس من طبيعة الكبير وطبعه البذل المجرد والبساطة
 الجليلة؟؟

ويجهز تاريخ نجد الحديث فيطبعه امين سنة ١٩٢٧ وقد تناول فيه احوال نجد في
 ماضيا وحاضرها وسيرة ابن السعود السلطان الامثل بتفصيل انيق « كنت استقي
 الاخبار من مصادرها العليا واسمع من ذوي العرفان ممن حدثتهم ما يثبت او يكمل
 الرواية السلطانية » وقد اشتمل هذا الكتاب على ثلاث نبد تاملتها الخرائط والرسوم
 درست اولها نواحي نجد واقسامها من وجهتي التاريخ والجغرافية والثانية تاريخ
 محمد بن عبد الوهاب والوهابية والثالثة تاريخ آل سعود منذ نشأتهم الى استيلاء محمد
 ابن الرشيد على نجد وختمت بسيرة عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها
 وفي المقدمة قارن امين بين ابن سعود ومعاوية والمأمون وصلاح الدين الايوبي ،
 افذاذ الاسلام ، وفضله عليهم جميعاً لانه تمكن دونهم ان يجمع شمل الجزيرة . وبديهي
 ان يعلي الريحاني شأن السلطان عبد العزيز وقد فرض عليه ابلغ الاعجاب ، وهو
 الى ذلك لم يعط حكمه عليه مستهدياً بقال الغير ولا متأثراً بهدايا السعودي

الجزيلة (١) بل مقتنعاً بتجسيمه كل ميزات القائد العربي الامثل .

اما اسلوب الكتاب فاجباري مرن غزير الفكاهة يشوبه احياناً بعض الجفاف العلمي اقتضاه التوسع في حقيقة التاريخ ، ووثائقه صحيحة على الاغلب يحتاج بعضها الى تنقيب وتعليل اعتمق رغم انها استقيمت من اصدق الموارد .

ويقوم الريحاني بسفرة في المدن المجاورة ، يتنقل بين سوريا ولبنان وفلسطين يزور رفاقه فيها تقام على شرفه حفلات تكريم ، تفرض عليه فرضاً ، ويدعى الى الخطابة والحديث فيعالج امور كل بلد بمبضعه الخاص ، وقد طلبت اليه تلك السنة جمعية الشباب المسيحي بفلسطين ان يلقي محاضرة توجيهية فيها فلي وتكلم عن النهضة واسبابها في ما فحواه « ان على المرء ان يثور على نفسه اولاً فيصلحها ليحق له بعد ذلك ان يثور على الحكومة » او لم يثر هو على نفسه اولاً يروضها كما اراد ؟ ان قوة الاقتناع في كلامه لم تكن تتفجر من معان ، كثيراً ما ردها سواه ، او من مبان لم تجيء آية في الرصف والتنسيق ، بل من حياة هي حياته حشرها في تعبيره ففتق عجزاً عن ادائها بملثها . ان كل لفظة قالها كان ينتزعها من صلب صميمه فتشمر عملاً اذا لاقت تربة خصبة .

ولم يكن هم الريحاني زارع الافكار في حقول شاسعة متنوعة الا ان يلقي بذوره الصالحة ويمشي . . .

كان للريحاني علاقات مودة راسخة بسوريا الشقيقة ، يهتم لحل مشاكلها ويعمل بحماس على انهاضها ، يتكلم في دمشق كما يتكلم في بيروت ، كأنه في كلا القطرين

(١) تكلم عن هذه الالاحية صديق الامين الحميم حسين (العويقي) في خطبة القاها في الحفلة التذكارية التي نظمت احياء للريحاني سنة ١٩٦٥ بمناسبة تعليق صورته في دار الكتب واطلاق اسمه على احد شوارع بيروت .

لديه ؛ والسوريون الى ذلك كانوا يقدرونه حق قدره ، لا سيما ابطال نهضتهم وادابهم
نخص بالذكر شكري بك القوتلي ، آل الحوري ومحمد كرد علي ، (١) وقد
خبروا قوته ووفاءه فوثق الاتصال بينهم يغذوه التفاهم الروحي .

كان امين يتألم في قرارته عندما يلمس التأخر الفاضح في بلدان هذا الشرق ولا
سيما في لبنان وسوريا فيعمل على بتره في كل مجال وبكل وسيلة وكان يعلم يقيناً
ان داء الشرق الاول كامن في سلبية الشرقيين واستسلامهم للقضاء . انهم يتغنون بأجداد
اسلافهم وينامون سكارى متورخين بذكريها غافلين عن قضايا الحاضر وتعاقب حلقات
الزمان ، فشور التقدمي المتغرب المؤمن بسلطان ارادة لم يعها محض رجاء وتوقع بل
عيشاً مستبقاً للوقائع وسعيّاً متزناً مستمراً ، وينادي بالعمل الايجابي وبالانكال على
النفس في احاديثه ومحاضراته . وقد وضع يومذاك كتباً اسماء - النكبات - (٢)
اوجز فيه تاريخ البلاد السورية في مختلف عصورها ، حمل فيه بتهكمه اللاذع على
التغني العقيم بذكر الاجداد ، طالباً الى ابنائهم ان ينصرفوا الى تسوية مشاكلهم
الحاضرة وتهيئة الغد ، وقد حاول ان يبين بشكل شعري خطايي ان هذه البلاد لم
تكن في جميع مراحل تاريخها الا مسرحاً للاستعباد ، مثل عليه الفاتحون من اشوريين
الى فرس ويونان ورومان و صليبيين واتراك ، مأساة الامة منذ كان الزمان ختمت
بنشيد الانتداب . وقد عزا سبب النكبات الاولى الى عدم التجانس الاجتماعي ،
الى التعصب الطائفي والى اضطهاد الاقليات ، فدعا الى نبذ العصية انى كان مصدرها
والى التكتل الوثيق في كنف الوطن لتحقيق اسمى رغائبه .

« اخواني ابناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها ؛
كثيراً ما نقرأ ونسمع ان تاريخنا مجيد ،
وكثيراً ما نتغنى بمجد الاجداد وبمفاخر الاجداد
فتعالوا نعيد النظر في اهم ما في التاريخ

(١) كان الريحاني عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي في دمشق

(٢) قيل انه رد على خطط الشام لمحمد كرد علي

تعالوا نزور الماضي الذي الهانا عن كل مكرومة
 ... اقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضة وقوافيه
 اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله، فتودون اذ ذاك ان تنسوا الماضي،
 انسوا الماضي ، انسوه غير آسفين
 ظفر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدك مثل ظفرك
 اذن ، تعالوا نتفاهم ، فنتآلف ، فنتضامن ، فنتجد في سبيل الوطن بل
 في سبيل الحياة .

تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

كان من الطبيعي ان تثير نكبات الريحاني ، وقد بالغ في التزهيد بتاريخ سوريا
 وحور عمداً بعض حقائقه ، سخط الكثيرون من المتمسكين باوهام الالامس القانعين
 باصداء الذكرى ، فيها جموت المؤلف ويدحضون ما زعم وهم يخالونه متغرضاً في
 كلامه يقصد شراً بسوريا بينما هو لم يتوخ الا تحفيز الهمم المتقاعسة الى النشاط
 المثمر ليحقق النهضة الاجتماعية التي ناضل دوماً في سبيلها .

ويتابع الهادم المصلح الواثق من نفسه طريقه الوعر الطويل ولا يتطلع الى
 الوراء. ان الاجيال المقبلة حكماً اصوب وانزه من حكم معاصريه ركن اليه شامخ
 الجبين ثابت الجنان .

٨

تطول غيبة الريحاني عن اميركة ، وله فيها رفاق وقراء ومؤيدون ، فيعزم
 على بلوغها وقد صمم على ان ينشر سلسلة كتب حول رحلته الى الياضية يعرف خلالها
 العالم المتمدن تعريفاً صحيحاً عميقاً بباهية العرب وبلادهم . وكان اولى الحلقات

كتاب - ابن السعود ونجد - فلما اتته ودع الفريكة والاهل ولبنان وسافر الى لندن في طريقه الى نيويورك ، وهناك نشرت شركة كونستابل Ibn Saoud of Arabia ; his people and his land فلاقى نجحاً نادراً لم يتوقعه مؤلفه ، ذلك ان قراء الانكليزية وجدوا فيه مادة جديدة اخرجت بقلب سائغ نابض فتهافتوا يكتشفون فيه حقائق شعب واقطار لم يعرفوا عنها الا اليسير المبهم . وقد استهل الريحاني كتابه هذا بمقدمة رشيقة عرض فيها غاياته البعيدة مبدياً اعجابه بالسلطان عبد العزيز سيد الحجاز ونجد وخالق نفسه وخاطبه يقول : « بنيتم يا طويل العمر البيوت للبدو فكانت الخطوة الاولى في سبيل تمدنهم فعمى ان تخطوا الثانية فتنشئون لهم المدارس . ان في المدارس تحقيق غايتكم لانها تكمل عمل السيف وتسهل وحدة الجزيرة العربية » . وفي فصوله تناول وصف رحلته من العراق الى البحرين الى العقير فالنفود ليحضر مؤتمراً سياسياً بين جلالة السعودي والمعتمد البريطاني في بغداد وينتقل من ثم الى الحسا فالرياض حيث حل ضيفاً على السلطان الجليل وتابع سيره الى الوشم فالقضيم فالدنهان فالحفر ، تكلم في سياقه عن مقابلاته مع جلالة عبد العزيز وما دار في اثنائها من احاديث بينها وما حفظه من انطباعات بليغة عن مذهب الاخوان ومجالسهم وعاداتهم وغزوهم وسائر خصائصهم بأسلوب بسيط انيق لا يختلف من حيث تعدد المواضيع عنه في العربية ، فيينا هو يحدثك عن الحطة السياسية التي اتبعها ابن سعود في احتكاكاته بالانكليز والقبائل المجاورة اذا به ينتقل دونما اي تمهيد الى وصف البادية وروعها الاخاذة في الليالي المقمرة ، ليخبرك فيما بعد بما عاناه من الم الحمى في احدى غرف القصر السلطاني بالرياض او ليسرد حكاية ظريفة عن رجال القصر يكوون قمصان مليكهم ، كأنما هو في خلوة مع القارئ يحدثه دونما تكلف بما يخطر بباله من شؤون ومرئيات خزنها في صميمه عن تلك الاقطار النائية . وقد عالج الريحاني بنوع خاص في هذا الكتاب احوال نجد في شتى مناحيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فرأى الاصلاح موقوفاً على امور ثلاثة الح على السلطان بتحقيقها وهي في زعمه : اخضاع البدو ، حملهم على اعتناق مذهب الاخوان واتشهم في الاضداد بعد تعليمهم مبادئ الزراعة الحديثة وتثقيفهم .

ولم يشأ أمين ان يمر في لندن دون ان يتصل ببعض جامعاتها ونواديها الادبية
فاخذ يزورها متعرفاً دارساً ، كما زار القاص العالمي الشهير هربوت جورج ولس
الذي تعرف اليه في مؤتمر نزع السلاح في الولايات المتحدة وادلى اليه بآرائه في
مجمع الغد (١) . وقد طلبت اليه جمعية آسيا الوسطى ان يلفظ محاضرة عن بلاد
العرب في اجتماع عقده برئاسة جلبرت كليتون المفوض السامي في العراق ، فلي
رغبتها والقي - نظرة صريحة في جزيرة العرب - Arabia : An Unbiased
Survey ، اوضح فيها حالة البلاد العربية في شتى نواحيها كما تبدت لعينه . وقبل
بعد ذلك دعوة الجمعية الملكية للشئون الخارجية وتكلم عن اهداف جولته ونتائجها
وما يتوقع منها ، في نخبة عريقة الرقي .

وفي العاصمة البريطانية ، كان الريجاني موضوع حفاوة الاوساط العالية ، تلجج
باسمه كبريات الصحف وتكلم عنه المجالس الراقية ، ولا غرو فقد تذوق البريطانيون
ادب الريجاني الانكليزي وشاقهم ان يتعرفوا الى صاحبه ويتحدثوا عنه كلما عرض
بجال ، ولكم طلب اليه الصحفيون آنذاك مواجهات خاصة ليكتبوا عنه وحوله
فكان في جميعها مثال الجنتلمن برصانته وكبره ، وقد اوفدت اليه آنذاك جريدة
التيمس مندوبها يدعوه الى ادارتها ويطلب اليه بعض البحوث عن المشكلة اليمنية
النجدية ، فكتب لها سلسلة مقالات نشرتها على التوالي منوهة بمكانة الرحالة الكاتب
في عالم الادب الحديث ، وواصل طريقه الى اميركة .

ولم تنقض مدة على وصوله الى العالم الجديد حتى طبع كتابه - حول الشواطئ
العربية - (٢) فضمنه بعض ما ورد في - ملوك العرب - عن زيارته للحجاز وعسير
والكويت والبحرين وعدن وعمان بقالب اخباري فكه بسيط ثم الحقه - ببلاد
اليمن - (٣) حيث دون رحلته من عدن الى صنعاء والحديدة فدرس فيه جغرافية

(١) ذكر هذه الاراء في كتابه The shape of things to come

Arabian Peak and Desert (2)
Around the Coasts of Arabia (3)

البلاد ولغتها ومظاهر العمران المحلي وتكلم عن فن البناء والشعر والادب وما اليها ، كما تحدث عن اليمنيين عسامة ، فصور اخلاقهم وعوائدهم ومرافق عيشهم بوضوح دقيق وبين اهداف زيارته التي ذكرها لامام صنعاء وهي « ان يرى البلاد ويكتب عنها ثم يتطوع لخدمة شعبها » وقد كانت الريحاني في ابحاثه هذه شاعراً خطيباً اكثر منه مؤرخاً دقيقاً فلم يعن بالتنقيب عن مختلف المصادر التاريخية ليقابل بينها ويعلل ثم يعتمد اوثقها بل اقتبل الوثائق في بعض الاحيان كيفما اتفقت له واكتفى بتأويلها على الوجه التقريبي . ففي الصفحة (١٨٦) مثلاً يقول : ان ذانؤاس اعتنق الاسلام اولا ثم كفر به ليدين باليهودية بينما اثبت التاريخ الحديث وفاة هذا الملك قبل ظهور الاسلام ، فلذا لا يصح اعتماذه دائماً كأساس تاريخي الاشياء من التحفظ . ولعل سعة تصاميمه الكتابية عن العرب ، على ضيق وقته ، فرضت عليه الاقتصاد في التدقيق حول المصادر التاريخية فضلاً عن ان هذه الناحية لم تكن اهم غاياته وقد اراد خاصة ، كما رأينا ، ان يعرض صورة بليغة عما احس ورأى وفعل واكتشف في تلك البلاد ، فحقق ارادته الى النهاية وتمثل القارئ الرحلة في ادق تفاصيلها كما لو بدت ملونة ناطقة على شاشة بيضاء .

٩

لم يكن امين كل حياته يفقه للحقد معنى ، كان يشور اذا مست كرامته ومبادئه ويحنق ، لكنه لا يلبث ان يروق بعد حين وقد تناسى ما حدث لديه وازداد حذراً . كأنما القلوب الكبيرة لا تحسن ضيافة الضعيفة ... يمر امام المنزل القديم حيث قضى سنين الزواج الآمنة وترك بعضاً من وجوده ، فتخطر بباله بروتاء المشيقة القدر ترفل بثوبها الارجواني كما رآها لأول مرة ، وتزدحم وقائع الماضي السعيدة في

ذاكرته، يفعل فيها كلها شخص برتا، فيتملكه الوجوم ويهمس في اذن صميه متحسراً:
هنا، هنا جلست تغازلني، وهناك نعم هناك، كانت تقطف ازاهر الربيع، وهناك
ناعمة منورة، طالما استوحت ربة الفنون ... ويشوقه لقائها ويبيدي شوقه لصديقه
ابرهيم الختي فيحاول هذا ان يوفق بينها.

بيد ان برتا، وقد ازعجها قيد الزواج، لم تلب رغبة الختي رغم تقديرها
لامين وتعلقها بنبيله، لكنها وعدت بان تجتمع به وتجدد عهد الصداقة التي كانت
تربطها قبل الافتراق. ولما خاب كل سعي للجمع بينها زوجين متحدين، قررا
اعلان الطلاق المدني (١)، وعاشا بالفعل كصديقين عاديين لا يصل بينهما الا وشح
القرابة الفنية الصرف.

وفي نيويورك، نزل امين العازب، هذه المرة، في نادي المؤلفين وقد كان احد
اعضائه (١) فعاش في جو فكري فني هادى، لاثم مزاجه وانسائه وحشته على نوع
ما. وهناك كان على اتصال وثيق مستمر بالحركة الكتابية العالمية، يطلع على
توجيهاتها وينتج ...

عندنا الريحاني مناضلاً مفادياً في سبيل العرب وكل ما تعلق بشؤونهم، وفلسطين
الشقيقة اولى باهتمامه من سواها، وكانت يومذاك قبلة مطامع الصهيونيين يريدون
انتزاعها قسراً من سكانها، فراح يدافع عن قضيتها بحماس، يبين حق العرب
الصريح ويظهر خطر التوسع الصهيوني في الشرق، يخطب ويحدث ويكتب
طائفاً بين الولايات لا يلوى عوده. وقد وجه اليه سنة ١٩٣٠ سماعة الحاج امين
الحسيني كتاباً يسأله فيه ان يشترك بالوفد المسافر الى لندن لمفاوضة الحكومة
البريطانية فاجاب معتذراً يقول: «عدت اليوم من سياحتي الخطابية، اشكر لكم
ثقتكم بانتدائي لعضوية الوفد الفلسطيني. كنت اود ان اقبل فيما لو تمكنت من
القيام بنفقات السفر الا اني غير قادر بهذه الايام وانا لا اقبل مالا من احزاب

(١) لم تنجز معاملاته (لقاوية) الا سنة ١٩٣٩

(٢) ذكر اسمه في دليل مشاهير اميركة Who's who

سياسية جزاء خدماتي للعرب» . ويرافق امين من بعيد مراحل المفاوضات ويعلن رأيه على الهامش في الصحف الاميركية الموجهة وحميته تنمو باطراد .

طال امد الفتور في العلاقات بين الريحاني وجبران وقد عرفنا اسبابه فيما سبق . وما كان هذا الفتور ليطول لو ان الفرص اتاحت الاتصال بين الاديبيين ، لقد عاش جبران تلك المدة في اميركة والريحاني بعيداً عنها ولمسا جاءها (١) كانت صحة الاول قد بدأت تسوء وكان قابلاً في صومعته لا يتركها الا في الندرى ، ينصرف الى فنه ويستقبل المعجبات الحسان ... ولماعلم امين من اخيه البوت باشتداد وطأة المرض على جبران ، بادر يعوده في المستشفى ، ولكنه ما كاد يبلغه حتى فارق الشاعر الحياة . فوقف امين جزءاً مكفهرّاً بين من تقبل التعازي بموت جبران ...

وتضطر المشكلة الفلسطينية اميناً سنة ١٩٣١ الى ان يغادر الولايات المتحدة الى الشرق ليدرس اوضاعها عن كثب ويحثك باخص المجاهدين في سبيلها فتقام له حفلة وداعية لاثقة في قاعة الحلف السوري في بروكلين اهديت اليه في ختامها كأس فضة وجائزة نقدية فقبل الكأس ورفض المال، وركب البحر الى الفريقكة يحمل اسى بالغاً في نفسه لفقد صاحب النبي ..

وفي الصومعة كان يدرس الريحاني قضية فلسطين ويقابل اصحاب الشأن فيها ، وكثيراً ما احوجته ظروفها الى ترك عزلته ليسافر الى فلسطين وسوريا ، قصد لاستزادة في الاطلاع والعمل الاجباي المشترك . ولمسا وصلت رفات ابن بشري الخالد الى بيروت في ١٢ اغسطس سنة ١٩٣١ ، استيقظت لوعة الامين من جديد على فقد جبران واوحت اليه قصيدته النثرية - ذكرى جبران - التي القاها في الحفلة التذكارية بصوت متهدج مخنوق ، وقد ناجى في مستهلها طبيعة لبنان وارزه

(١) كثيراً ما كتب الريحاني عن جبران الرسام الشاعر يحلل اتجاهه ، بعد رجوعه الى اميركة . (٢) كان يدرس في نيويورك .

جماله ومستمدات وحي جبران على اختلافها ، من الوادي المقدس الى شاطئ البحر الابيض الى ما وراء الاردن الى باريس واميركة وبطون التاريخ ، ثم انتقل الى تحليل روح الشاعر المتمرد منذ يقظتها الى ان فارقت المادة ، وانتهى الى مدى نبوغه وتأثيره في الشرق والغرب :

« حمل الارث القديم الى ما وراء البحار ... »

فزاد البعد صدى الاصوات جمالا وزادت الغربة بجلال المآثر والذكريات . ظل يسمع اجراس الكنائس في لبنان ، وظل يطرب لرنات العود وغنات القصب . .

ثم ذرف دمعته الاخيرة وقال :

« ما احزنني شيء في حياتك وجهاذك مثلما تحزنني هذه العودة منك عودتك الاخيرة الى لبنان وودتها والله لنفسى . »

فحبذا الموت يعدل بيننا ، بين من تعددت عوداته ومن تكررت فيه لوعة الحرمان .

ولاعطيتك لو استطعت عيني وقلبي لترى الآن ما نراه عنك وفيك .

جبران اخي ورفيقي وحبيبي ،

ان للشهرة يوماً وان للحزن يوماً والباقي للبنان .

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذي يضمك اليوم وغداً يضمني اليه .

... وان ترابي غداً في وادي الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس .

ومن ظلال الصنوبر الذي سيظل ضريحي سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح

مساء ، الى ضريحك في ظلال الارز . »

ويعود الامين الى سكينه واديه ، وقد حمله موت جبران على التفكير بنهايته

هو ، فراح يكتب وصيته (١) في اوائل سبتمبر سنة ١٩٣١ يضمها « وصاياه

العشرين » وفيها نظرياته الشخصية في الدين والمجتمع والحياة .

(١) ذكرنا بعض هذه الوصية في الختام .

كان يرى الامين المصلح الايجابي الجريء ان يشترك ، في الاصلاح الاجتماعي ، جميع افراد الامة ، كل حسب امكانياته ، ولا سيما المثقفون بينهم ، ويتوقف خاصة عند هذه الناحية في مقالاته وخطبه واحاديثه في كل مجال . كان يؤله ان ينصرف الشعراء بكليتهم الى النذب والبكاء والعيول ولا يساهموا مطلقاً بالبناء الفكري وقد ارادهم ، متأثراً بفكتور هوغو ، رسل الناس يرددون صدى البيئة الرجراج ويعملون على معالجة النفوس الضعيفة ينفثون في صميمها قوة وعزماً وثقة بالحياة ويحيون مع الفلاسفة الشعور القومي الصحيح . وقد كتب عدة مقالات بهذا الصدد لاذعة التعبير خشنة اللهجة والتي بضع خطب حادة قارصة في مدرسة البنات الالهية ، الجامعة الوطنية والكلية الاميركية حملها نقمة شعواء على الشعر الباكي والالم والدموع وتعريضاً قاسياً بالشعراء الندابين .

« في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة بل القلوب الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام ، قلوب تبيع كلما اهتز الورد في الاكام ، قلوب تسيل هياماً كلما تلاًت شمس الاحلام — قلوب مائعة ذائبة على الدوام .

« قلوب تذوب كلما هبت ريح الصبا ، تذوب في الليالي المقمرة ، وعند كل ساقية او غدير تذوب في رابعة النهار لرنة عود ولانة من افات « ياليل » قلوب تذوب في ظلال الصفصاف ، وتذوب امام الفونوغراف — قلوب شرقية مائعة على الدوام . ونحن في زمن الحديد والكهرباء !

« ان حاملي هذه القلوب لاعجز في الحزن والنكبات من فراخ القطا ، ولاجن من صفار الارانب . وما اسرعنا ، وهذه قلوبنا ، الى الشكوى والالين ، الى التلهف والتأوه والنواح ما اسرعنا ، وما اشد صراخنا ، في ميادين النذب والنحيب . كأننا في مندب دائم وكأن النذب مشتق من الانتداب » . كأنه نسي هنا ان في شعره الانكليزي من الميعة الرومانطيقية والالم والدموع شيئاً ليس باليسير . وينشر الامين هذه الانتقادات سنة ١٩٣٣ في كتيب اطلق عليه عنوان — اتم الشعراء — اثار ضجة كبيرة في الاوساط الشعرية في لبنان ، فتوهم بعض

الشعراء ان الامين قصدهم تشفيًا وحسدًا في كلامه واصدروا ردًا غفلاً - اجل نحن الشعراء - عارضوا فيه كتاب الرجا في حتى بعنوانين فصوله وخصائصه الطباعية محاولين تحطيم انتاجه والخط من قدره . واحتدم الاشتباك القلمي طويلاً في الصحف والمجلات ، يخوضه كل ذي علاقة او طالب شهرة يساعد الامين او عليه ، وقد وضعت مجلة المشرق عدداً خاصاً آنذاك حملت فيه الكتابين كليهما بدقة لا بأس بها ، متخذة نوعاً جانب الدفاع عن الشعراء . والامين الى ذلك ثابت في عقيدته واثق ابداً من ترفعه عن الغاية الخاصة في ما يقول ويكتب .

١٠

عهدنا الرجا في خطيباً حرّاً لا يداجي ولا يجامل ولا يرضى دون الحق والحقيقة هدفاً . طال عهد الانتداب في بلادهم واستبد المنتدب وطفى والشعب ، الا اقله خانع راض يمالى او يتغاضى لا مبالياً ، فالى الا ان يفتح العيون المتعامية على الواقع المذل الحرج . فلما دعت جمعية الحياة الادبية في بيروت لبدء رأيه في وضع هذه البلاد ، سنة ١٩٣٣ ، لفظ خطبه البركانية - بين عهدين - يضمنها ما احتشد في صدره من مسخط حرون على الانتداب واوليائه ومريديه ، فقابل بصراحته الجريئة بين عصر عبد الحميد والعصر الحاضر ، بين اول وقفة وقفها في بيروت منذ نحو ثلاثين سنة وبين وقفه الاخيرة قال : « اننا انتقلنا من عصر عبد الحميد الى عصر الانتداب السعيد من ظلم ظاهر محتسل الى ظلم خفي منظم من ظلم يحمل النبوت والكرباج فينتقيها الناس الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات » فبلغ الخبر حالاً الكونت دي مارتيل ، المفوض السامي الحاكم بامرهم ، فاعز بنفي الخطيب عن لبنان ثلاثة اشهر قضاها امين في ضيافة الملك غازي في بغداد . وقد وجه كتاباً قبل

ذهابه، الى جريدة - النداء - ودع فيه الاصحاب وغير الاصحاب في بيروت قال فيه: «ما احزنني بما كان لهذه الحطبة من النتائج الاجتماعية والسياسية غير غير بعض الناس اخواني في هذه البلاد على ما يظنونه مصلحة الفرنسيين وكرامتهم فصحت فيهم الكلمة الفرنسية الماثورة Plus royaliste que le roi وقد امعنوا في نزعتهم هذه فتجاوزوا التأويل والتشويه لما قلت تجاوزوها الى الوشيان والاغراء فقالوا اني فضلت عهد عبد الحميد على العهد الحاضر (والمقابلة بين العهدين غير التفضيل) وقالوا اني عدو الفرنسيين والانتداب وعدو السلطات المحترمة كلها. وما انا بعد لغير الجبل والخوف والتعصب في الناس ولغير الظلم والاستئثار والفساد في السیادات والاحكام، انا انا عدو اعمال لا عدو رجال» ثم ينتقل الى القول، «انه ليحزنني والله ان يكون بين هؤلاء من الاسياد والصعاليك من لا يهمهم غير خبز يومهم وان جبل هذا الحزب بالتزلف والذل والخذاع وبما ان داءهم في قلوبهم كما هو في جيوبهم فاني اسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران»

ويعود الريحاني الى لبنان بعد تدخلات جمّة قامت بها السلطان البريطانية والامير كبة لدى وزارة خارجية فرنسا وهو على اشدهما يكون نقمة واعية على الانتداب والمنشد، فينشر كتابه - فيصل الاول - تاريخ شامل لعاهل العراق صدره بمقدمة طويلة، رد فيها على من اتهمه باضطراب لبنانيته قال: «يريب بعض الناس حيي للعرب وملوكهم واهتمامي الدائم بشؤونهم وقد انتقدني نفر من الكتاب فقالوا ان وطنك القريب لبنان لا حق باهتمامك من الوطن البعيد... ولكنك مستحقاً مذمتهم كلها لو ان حيي للعرب افقدني ذرة من حيي للبنان» ثم انتقل الى الكلام عن الحكم الملكي والجمهوري عامة بالنسبة الى الشعوب وطبقاتها. وحلل فعاليتها ومقوماته الصحيحة بدقة وافية فتناول مطولا حياة فيصل واخلاقه واحوال معيشته ووصف كيفية بلوغه الملك وما قام به من بطولة وتضحية لاجل هذه الغاية كما ذكر بعض احاديثه مع صاحب الجلالة اثناء زيارته الاولى للعراق وبين ذلك الدور الاولى الذي لعبه الكرنل لورنس على مسرح

السياسة العربية ثم ختمها برسالة شعرية خاطب فيها روح فيصل بجلال واعجاب وبخطبة القاها في حفلتي الاربعين لذكرى فيصل في دمشق والقدس تحت عنوان «النسر العربي». نهجه الكتابي رشيق بسيط لا يختلف من حيث فكاهته ولذعه عن سائر الجولات الاخبارية التي دونها الامين ، مستنداته التاريخية قيمة على الاغلب تؤيدها مراجع وثيقة ودروسه صائبة وافية لا تخلو احياناً من بعض المبالغة في التقدير ربما فرضها عليه عرفان الجميل حيال من اكرم ضيافته في المنفى من جهة ونقمة شديدة على الفرنسيين اعداء فيصل من الجهة الاخرى .

ولما اقيم مهرجان الفردوسي في ايران سنة ١٩٣٤ بمناسبة الذكرى الالفية لمولد مؤسس الشنامة ، كتب امين في صومعته رواية تمثيلية قصيرة - وفاء الزمان - اظهر خلالها الفردوسي رسولا خالداً ينادي باحياء الارض ونشر العلوم وشخص الزمان اباً وفيلاً لا يجحد بفصل ابنائه ، فراقته المسرحية اللبقة جلالة الشاه رضا بهلوي امبراطور ايران وامر وزارة المعارف بان تمنح المؤلف ارفع اوسمتها (١) اما المسرحية بمجد ذاتها فضيلة القيمة الفنية رغم انها صدرت عن صميم الريحاني وجسدت رأيه في ان الرجل كل الرجل يفرض فعله على الخلود .

في سهرات الشتاء الطويلة ، عندما كان امين يسأم استمرار العمل في وحدته ، في الفريكة ، كان يرافق ام امين وسعدى لزيارة الجيران . وهناك حول الموقد على « الطاريج » وقد ساوت الالفة والبساطة القروية بين الحاضرين ، كانوا يلعبون « بالظلوم » ويتنادرون ويققهون ، فتعود بالامين الذكرى الى عهد الطفولة واخبار جحا والوزير ويقابل بين امسه ويومه ويتأمل ...

(١) ارسل الوسام الى قنصلية ايران في بيروت حيث قلد الريحاني في حفلة رسمية

اقيمت لهذه الغاية .

كان يقصد اميناً في الصومعة جموع المتسولين ومحترفي التسول وقد عرفوا عنه السخاء الجرد فيعطيههم نصيبهم خفية عن اخته سعدى ولا يرد سائلاً . وكانت سعدى ، اذا علمت باحسان اخيها الى من لا يستحق ، تثور وتعاتبه قائلة : « ان صاحبك لاحتال دنياً لا يجوز الاحسان اليه يا امين . ضع حداً لهذا التبذير والتهور . ان امامك الشيخوخة المقبلة وعليك ان تعيل اهلك » فيجيب مبتسماً ملاطفاً : « الكفن ما لو جياب يا سعدى . معنا لنا وللناس ، ما معنا لا لنا ولا للناس » . جواب ينم خلال بساطته المؤثرة على طبع الرجل المعطاء اللامبالي بمادية العيش .

كان امين في تنسكه هذا على صلة دائمة برفاق جهاده ، يزورونه مرة ويتراسلون مرات ، وقد وجه يومذاك كتاباً الى صديقه فؤاد الشامي صاحب - المريخ - يحثه على العمل المستمر قال : « ان في الوادي زنا بق الحب وصنوبر الجهاد وماء الحياة وهي لك ولي ولكل من حمل معولا ومشعالا في هذه الامة ، قد يقل الزيت في سراجك وقد ينطفئ السراج ، فيظل المعول بيدك ويظل في رأسك عينان - نوران - ييران الطريق ان المعاول يا اخي لالزم ما يلزم هذا الجبل الكثير الصخور . المعاول ! المعاول ! لتنقر في صخورها اليوم وتحطمها قصير حجارة تصلح للبناء وتصير تراباً يصلح للغرس والزرع . حطم اذن حطم ولا تحف انك من العاملين للبنائين والزارعين حياك الله واكثر من امثالك وانصارك » . ان عقيدة الريحاني وقد جاوز الستين لا تختلف من حيث صلابتها عنها في صوته . لقد حمل ويحمل المعول وحطم ويحطم متفائلاً ليقم على الانقراض بناء حديثاً وطيداً يلائم تطور العصر .

وكان فيصل الاول لم يستوعب كل ما اراد تدوينه عن بلاد الرافدين ، فاتبعه - بقلب العراق - خاتمة كتبه المطبوعة ، بحث فيه عن جغرافية تلك الدولة وتاريخها منذ غزوة هولاكو الى اليوم ودرس عقلية الشعب وسذاجته البريئة واستسلامه الاعمى لمشيئة القدر كما وصف مسالك عيشه وطبقاته وما اليها من

الخصائص النموذجية ، جعله ثلاثة اقسام تخللتها الخرائط والرسوم ، تناول في اولها بغداد بصورة عامة وفي الثاني الآثار القديمة وغزوات الاثريين الاجانب لها ، فقال : « انه خير للعراق ان تبقى آثاره مدفونة في ارضه من ان تطير الى ما وراء البحار » اما في القسم الثالث فتكلم عن النهضة في الوانها وظلالها ، درس حالة الثقافة والتعاليم الطائفية وتحدث عن المع الشعراء هنالك وعلاقاتهم بهم ولا سيما الرصافي ، حتى اذا انتهى الى السياسة والسياسيين قال : « اما سياسي بغداد فلا اظنك تجد له صنواً في الشرق او في الغرب . فان عقليته مزيج من الغبار والرماد غير ان قلبه مضمخ بالطيب ولسانه لسان الخطيب » . اسلوبه واقعي قارص تجلت فيه الصراحة احياناً في اخشن وجوهاً ولا غرو فامين كان يعتقد على حق ان ما يكتب للتاريخ لا يجب ان يتأثر بغير الحقيقة العارية . فلما نشر الكتاب وبلغ العراق منعت وزارة الداخلية تداوله فيه وصادرت نسخته المباعة زاعمة « انه يحتوي كثيراً من المباحث التي تتعارض مع المصلحة العامة والتي لا تتفق مع الحقيقة » . لكن ذلك لم يثن الامين عن مواصلة جهاده او يضعف ثقته بالاصلاح وهو ادرى من سواه بمآرب المتعرضين ودساتيرهم ، بل تابع عمله الجسدي بشأن القضية الفلسطينية التي ترك اميركة من اجلها ، يكتب في صحف الاقطار العربية كافة مؤيداً حق العرب الراسخ ويلقي الاحاديث المقنعة ليوظظ الرأي العام على الحقيقة كما هي . وقد وجه آنذاك رسالة الى ملوك العرب اثبت فيها الحجج القاطعة في دعم حق الفلسطينيين قال : « اما حق العرب الوطني القومي التاريخي القانوني فظاهر كالشمس في رابعة النهار يؤيده اولا عهد الحكومة البريطانية الذي قطعته للملك حسين (ك ٢ سنة ١٩١٦) بتأسيس دولة عربية تشمل فلسطين وسوريا والعراق ثانياً يؤيده تعهد الحكومتين البريطانية والفرنسية في بلاغهما الرسمي (ت ٢ سنة ١٩١٨) الذي يضمن لمن كانوا رازحين تحت مظالم الاتراك ، اي العراقيين والسوريين والفلسطينيين حقوقهم في تأسيس حكومة وطنية تستمد سياستها من مشيئة الاهالي الحرة ثالثاً تؤيده المادة التي تقدم ذكرها (وعد بلفور ت ٢ سنة ١٩١٧) وفيها تتعهد الحكومة البريطانية الاتقدم على عمل ما مضر بحقوق

اهل فلسطين الدينية والمدنية وتؤيده رابعاً الفقرة الرابعة من المادة ٣٢ من معاهدة فرساي التي تضمن لاهالي فلسطين وسوريا والعراق الحق في تقرير مصيرهم .

وكيف لا يدافع الريجاني عن حق العرب بفلسطين ، ذلك الحق الواضح الصريح ، وقد نادى بمبدأ تقرير الشعوب لمصيرها ونذر نفسه لنصرة العدل وخدمة العرب .

١١

كان الريجاني يعتقد ان الدعاية للعرب ولا سيما الفلسطينيين ضرورية جداً في الاوساط الاميركية « لاسباب ثلاثة : اولاً لمقاومة الدعاية الصهيونية التي اضرّت كثيراً بالقضية العربية وشوّهت سمعة العرب الطيبة ، ثانياً لتشجيع الاميركيين الراغبين في الدفاع عن قضية العرب ثالثاً لرفع شأن السوري واللبناني والفلسطيني في الولايات المتحدة » . فلما دعت مؤسسه التربيه الدولية في اواخر سنة ١٩٣٦ الى القاء سلسلة من المحاضرات عن الشؤون العربية والاحوال السياسية والتراث الادبي في الشرق الادنى عموماً ، لم يتردد في تلبية دعوتها وقد وجد فرصة ملائمة لتحقيق مسعاه . فلما بلغ مرسيليا وجه رسالة الى امه تجلى فيها تعلقه الالاهف بها وبساطته النبيلة ، هذا نصها :

« من الباخرة في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٧

الوالدة الحبيبة ام امين حفظها الله وامد بعمرها .

ما شعرت في سفرة من سفراتي بما اشعر به اليوم . ولقد حاولت ساعة وداعك ان اخفي الدمعة التي تكونت في طرف عيني على اني متيقن ، وبقيني هو بعض ايماني واملي بالله ، ان ساعود اليك في الصيف القادم ، وسأكون من اسعد الناس يوم اشاهدك

بالفريكة وامتع عيني وقلبي بك - واكلفك بان تمسدي ظهري ويدي (١) .

يا ام امين العزيزة - يا اعز اعزاء امين - اسمعي هذه القصة وهي من اغرب ما حدث وانا في نابولي . فقد زرت صديقاً طليانياً في ضواحي المدينة - زرت في بيته فكانت والدته في البيت وكان هو عند بعض اصدقائه . فارسلت اليه رسولاً يخبره بقدومي . واخذت هذه السيدة الشيخة تحدثني بلغة لا افهمها . هي مثلك الا انها اقل سنّاً منك ولكنها ورعة تقية غيرة غير دينية حارة . وهي رئيسة اخوية . جاءتني بصورة السيدة ، سيدة ممباي المتعبدة لها واعطتني اياها . فذكرتك وحفظت الصورة وانا مرسلها اليك الآن والسيدة الطليانية هي ايضاً مثل ام امين بالفريكة تجمع المال لاخويتها - « شجاده » مثلك يا ام امين ، يا ويل امين فقد هرب من الفريكة ووقع في الشرك في نابولي . اعطيت باسمك ما اعطيتها من رئيسة اخوية الفريكة الى رئيسة اخوية ممباي !! واخذنا الصورة الواصلة طيه فما قولك دام فضلك .

وصلنا صباح اليوم ٨ ك ٢ الى مرسيليا وسنستأنف السفر هذا المساء - رأساً هذه المرة الى نيويورك فنصل عندما يصلك كتابي هذا او بعد يومين من وصوله اليك .

شدي حالك ايتها الوالدة الحبيبة وليكن ايمانك بالله شديداً قوياً . فسيمن علينا بالاجتماع كما اذن بالفراق ، سبحانه وتعالى .

سلمي على عفيفة وام يوسف . وعلى الجيران ومرشد ونافله وعلى العمة ام ادمون واهل بيتها . وعلى كل من يسألك عني من الاقارب والجيران .

وهذه قبلات حارة لك ولسعدى من قلب . امين (٢)

هذا هو الريحاني الاديب العالمي وعشير الملوك يذكر بافتخار جيرانه القرويين عفيفة وام يوسف وشد ونافله وام وادمون ويبلغهم مودته الاكيدة .

(١) كانت تقوم والدته بتسديد يده وظهره عندما كانت تتباه نوبة عصبية

(٢) عن كتاب - امين الريحاني - لا لبرت الريحاني

يبلغ امين الولايات المتحدة ، فيشرع يلقي محاضراته في مختلف الولايات وخاصة في كاليفورنيا ووشطون واوروغون ، وقد بحث في القسم الثقافي منها حول اثر العرب في المدنية العلمية وقيمة الف ليلة وليلة ، مصادرها الفارسية وصلتها بمحاكمات « بوكاتشو » ثم النهضة الادبية الاخيرة ، وقابل بين طاغور وكبلنغ وحل نقاط التلاقي بين الشرق والغرب . اما في القسم السياسي ، فعالج الانتداب في الدول العربية وما اثار من اضطرابات شعبية في سبيل التحرر وتكلم عن العلاقات القائمة بين مختلف الاقطار العربية وجيرانها وانتقل منها الى الحلف الشرقي ، كما درس صلات الشرق العربي باوربة واميركة وعرض قضية فلسطين مبينا اغتصاب الصهيونيين الفاضح (١) وقد كتب الى اهله سنة ١٩٣٧ يصف احدى رحلاته قال : « تركنا بلنغ وست فرجينيا الى شيكاغو والمسافة بين الاثنتين تقارب ٤٨٠٠ ميلاً ثم تابعنا سيرنا الى ميتروبوليس منبشاً وهي تبعد ١٢٠٠ ميلاً عن الحطة التي وضعت لرحلتنا ولينا الدعوة لسبب واحد هو الدفاع عن حقوق العرب » . على ان دفاعه عن فلسطين لم يكن لينحصر في هذه المحاضرات وحدها بل تعداه الى الابحاث الصحفية الضافية الى المناظرات العلنية تجري بينه وبين اقطاب الصهيونية كجاكوب ويلاس وموريس صموئيل ، وقد كتبت جريدة التيمس ستار في سنسائي اوهايو اذ ذاك ما ترجمته : « اجتمع خلق كثير برعاية جمعية السياسة الخارجية في نزل جيسن لاستماع حوار جرى حول القضية الفلسطينية بين الريحاني وموريس صموئيل اعلن الاول في سياقها ان الصهيونية في فلسطين قد تطورت من روحية مسالمة الى سياسية جائرة طامعة في التوسع والاستيلاء على الاحكام » وقد اقترح امين في مقال نشرته مجلة « فلسطين وشرق الاردن » الانكليزية انشاء وطن قومي في ولاية تكساس باميركة اذا كان لا بد من ايجاد وطن قومي لليهود . ولما اقبل الصيف وانهى محاضراته في الولايات المتحدة هم على الرجوع الى لبنان وقد عاهد والدته بموافاتها قبل عيد السيدة . فاقامت له حفلة وداعية ودية خطب فيها الدكتور

ويليام ارنست استاذ جامعة هرفرد منوهاً بخصائص الريحاني رمز الاشعاع الشرقي الساطع .

ويعود الامين الى لبنان راضياً عما قام به من خدمات في سبيل اخوانه الفلسطينيين ، خدمات كان يعتبرها واجباً مقدساً عليه اداها مختاراً بفعله فخر التضحية .

كان البورت يوافي اخاه اميناً كل ليلة بصحف العاصمة واخبارها عندما يعود من عمله . ففي ذات مساء بينما كانا يتحدثان ، ابلغه ان مي زيادة خولطت في عقلها وادخلت مصحح العصفورية ، فانتصب هذا مذعوراً يستوضح اخاه : مي الادبية ابنة الياس زيادة مجنونة ?? ماذا تقول يا البورت ؟ ... حتى اذا رأى الخبر بعينه في الصحف وتأكد صحته ثار ثأره وصاح : لا ! لا ! كيف يكون هذا ؟ وللحال مرت في ذهنه ذكريات الامس البعيد ، فتمثل ميأ في كوخها الاخضر وتمثلها تمس امامه في الصومعة حيث هو وتمثلها في مصر تخطب وفي سفح الهرم ثم تحيلها مجنونة في المارستان ، فوجم واضطرب واسودت الدنيا امام ناظره .

ونزل امين في الغد الى بيروت يزور ميأ وقد نقلت الى مستشفى ربيز ، فرفض ان تقابله وقرمرت ساخطة ، فلم يكن منه الا ان فتح عنوة باب غرفتها ودخل واذا بها نهكة هزيلة ترغي وتربد ولا تود ان تشاهد امرأاً . حاول ان يهدئ اعصابها ملاطفاً في بادئ الامر ، لكنها ازدادت هياجاً ونقمة ، فاعتبر للحال وجهه وحديق اليها بعينين مترعتين بالمرارة تعبران عن حرقة النفس واستسلما كلاهما الى الصمت البليغ . وبعد وجوم لم يكن قصيراً ، تأوهت المريضة وقيمت : « لقد ظلموني يا امين واذاقوني من الاضطهاد امره » وشرعت تروي قصتها وهي لا تتمالك عن الزفير اللاهب . فامض الريحاني ذلك المشهد المؤثر ، لكنه تجدد عن ابداء اساءه واملها بالفرج

القريب ثم صافحها دامعاً وتواري ...

وكانت المرة الاولى التي رأى امين فيها مياً بعد ان تركها في سفح الهرم
سنة ١٩٢٢ زاهية تتفجر حياة ورجاء وغبطة ...

١٢

عندما غادر الريحاني مصر سنة ١٩٢٢ عاهد مياً على ان يرسلها ويعلمها باحواله
كل مدة ، لكنما شاءت الظروف غير مشيئته ، كثرت عليه المضاعف في الجزيرة
وتراكمت مشاغله حتى كادت تنسيه كل ما عداها . ولما رجع الى لبنان وعلم بعلاقاتها
الخيالية بـ جبران ، التي كانت يومئذ حديث الجميع ، لم يخطر له ان يجدد صلاته بها لا
سيما وانه حفظ اثرأ سيئاً عن المرأة وتقلباتها بعد ان خذلته بوتا . اما مي وقد آلمها
اعراض الريحاني عنها ، راسلت جبران وهو في اوج شهرته يومذاك فرد عليها
باهتمام وتوثقت بينهما روابط المودة رغم البحار الفاصلة ...

ومات جبران فهلعت مي واضطربت ، ثم توالى عليها مواكب الشجون
وساورتها السويداء واورثتها مع الايام عوارض الهستيريا التي تلازم عادة يأس
العوانس العاطفيات عند مناهزة المحسنين ، فنسب اليها الجنون وكان من
امرها ما كان ...

وترك «المجنونة» المستشفى وتسكن مخدعاً قرب الجامعة الاميركية كانت
يعودها فيه امين والبرت الريحاني ، شارل مالك ، قسطنطين زريق ، خليل الحوري
والامير عبد القادر الجزائري يؤسونها حيناً ويخفون عنها وطأة الآلام .

وكأننا المصائب للامين بالمرصاد لا تأتيه الا مزدوجة ، فبينما كان يعمل في مكتبه

ذات صباح، وافته سعدى شاحبة الوجه خائفة تناديه: «اسرع يا امين ان امي تنازع» وبعد هنيهة كان الريحاني فوق رأس امه وكانت قد لفظت روحها فجأة قبل ان تراه ، فعض على سبابه وقال : « تموت امي يا سعدى ولا تخبريني » . « ان نزاعها لم يدم الا ثوان يا حبيبي » اجابته سعدى دامعة ناجبة ، فوجم حيناً يصغي الى صوت باطني يردد : فلما الموت يراعي شعور البنين يا امين ، ووقف ذاهلاً يفرك يديه وهو يصرف اسنانه ، ثم دخل الصومعة يواجه نفسه في السكون ويستعيد بالذكرى مراحل حياة ناعمة قضاها في كنف ام امين ...

وتدعوه الى نيويورك بعد مدة المحاضرات السياسية والثقافية التي لم يكن اتمها بعد ، فيستأذن مياً ويسافر الى الولايات المتحدة والغم والههم اليقاه . وهناك انجز مهمته سريعاً ، نور الرأي العام الاميركي على تطور القضية الصهيونية واطهر اهمية الانتاج الفكري في الشرق الادنى ثم رجع للمرة الاخيرة الى لبنان ، وكان الجو السياسي يندثر بالتفاقم الشديد . وفي طريقه ، عرج الى المغرب الاقصى ، يطوف اقاليمه دارساً اوضاعه بامعان ، وقابل حضرة الحليفة وباحته في شؤون بلاده (١) فاکرم هذا وفادته وقلده ارفع وسام لديه . وواصل امين سفره الى لبنان وهو قلق عطش الى اخبار مي ...

وصل الريحاني الى بيروت والصيف في اول احتدامه ، وكانت المريضة قد بدأت تتعافى وتستعيد حيويتها (٢) وقد اشار عليها الطبيب بان تصطاف في منطقة متوسطة الارتفاع ، فاقترح امين نقلها الى منزله في الفريكة ، فمانعت في البدء كل الممانعة وابت ان تنزل في بيت لم يخص لها ، حتى اذا وعدوها بان يبيها لها مسكناً مستقلاً تعيش فيه وحدها ، قبلت دعوته وجاءت تنسم الوحي في الوادي !!

هذه هي مي ترجع الى الفريكة ، بعد ربع قرن وقد اعتراها الهزال وحطمتها

(١) اختاره معهد الدراسات العربية في المغرب رئيس شرف له

(٢) ألقت محاضرة قيصة في الوست هول في تلك الاثناء

العلل وهذه هي الفريكة نفسها تستقبلها اليوم، كما في الامس، ضاحكة تدفق حياة .
وهناك في مسكن قروي بسيط ، كانت مي تقضي ساعات النهار تعمل في المنزل
او تطالع وتكتب وتتأمل الى ان يقبل الليل فيزورها امين وسعدى والبرت يلعبون
معا « البينا كل » ويتنادرون ويضحكون ... والايام تستمر والذكريات تعاود
مياً ، لدى اختلاها بنفسها ، فتوتعش نائمة ، ويخنقها الزفير ...

ويولي الحريف ويأتي الشتاء، وتساخر مي الى مصر، وقد هدأت اعصابها على نوع
ما وعاولها النشاط، وهي تحفظ للريحاني وللفريكة واهلها ، في الصميم ،
اسمي جميل .

اطمان امين بعض الشيء الى صحة مي فاستأنف ، بعد ذهابها ، العمل الجدي
واخذ يصنف كتاباً عن المغرب الاقصى تحدث فيه عما شاهده ، اثناء سياحته
الاخيرة ، من عادات شعبه واطواره وحالة المجتمع وخصائصه وعظمة جبل
طارق والى كل ما هنالك من امور تساعد في اظهار واقع المغرب .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية ، صعد الريحاني صعباً واضطرب ، ولا غرو
فقد خبر عواقب الحروب من قبل وما جرت من الوبلات على العالم وعلى هذه
البلاد بنوع خاص . وكأنه اراد في تلك المحنة العصية ان يحثك مباشرة بمواطنيه
ليستكشف اوضاعهم ويخفف من همتهم ، فراح يحول في المناطق اللبنانية يتعرف
اليها بتعمق ودقة دارساً ميزاتها ونزعات اهلها ، زائراً اديرتها واشجارها الضخمة منقياً
عن تاريخ قديسيها واحبارها وادباؤها وعائلاتها مستقصياً عن تقاليدها المحلية واصفاً طبيعتها
وجوها ليجمع كل ذلك فليذة حية في - قلب لبنان - الذي لم يتسن له ان يتمه (١) .

(١) بقي مخطوطة الى اليوم ، ثم نشره اخوه البرت مع هذا الكتاب فجاء تحفة ادبية
جديرة بالريحاني

وفي - قلب لبنان - قلب الامين الشاعر يختلج خلال السطور ، يصف لك مشهداً طبيعياً وما يوحى اليه من ذكريات وافكار ، فتخال نفسك ترى وتلمس وتعيش ماتقرأ كيف لا وقد عاش الامين المشهد قبلك واخرج مع الوصف انفاً حارة تحميه .

« ارز لبنان - رفعت حجراً من حجارة الطريق الى فمي ، فقبلته ورعاً حامداً آملاً ، قبل ان دخلت الظلال القدسية .

واستغفرت الارض لامتهاني حرمة عزلته - هذه العزلة الفريدة في اعالي الجبال ، فوق وكر النور ، وراء حجب الآفاق .

استغفرت الارض لاني جئت اشق ستار كعبته ، جئت استكشف مكنون سره .

ايه ربة الاشجار وسيدة الجبل الجبار ، انت الرافعة اعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء ، بنت الجديدين واخت القمرين ، حدثيني ، حدثيني ، وعلمي ، وارفعي بي الى علياء ايمانك .

فقد جئت مستعلماً ، مسترفعاً ، مستمداً من ينبوعك العالي القوة والحكمة . »

وفي قلب لبنان ايضاً ، معرض عالمي لقادة الفكر والحروب وخطرات فلسفية مستمدة من عبر الزمان منشورة خلال فصوله . اما اسلوبه الكتابي فتغلب عليه اللمعة الريحانية القارصة ، شعري تارة ، اخباري او انشائي تارة اخرى حسبما تقتضي المواضيع وهي متعددة كثيرة شأنها في جميع الجولات الكتابية التي اخرجها المؤلف ، قد يعوزه استحكام اوثق في لحنه وصل او في انشائه ، ولكن هذا لا يضير مخطوطة لم يقيض لها الانجاز .

و كأننا الاقدار شاءت ان يموت الريحاني وقلبه معلق في - قلب لبنان - فسولت له في الخامس عشر من اغسطس سنة ١٩٤٠ ان يركب الدراجة بعد ان انقطع عن ركوبها اربعين سنة ، وانطلق مسرعاً واثقاً من مرونته الى ان بلغ احد المنعطفات الوعرة حيث فاجأته النوبة العصبية في مينا فعجز عن متابعة السير

وهوى الى الارض وقد ترضرر رأسه وفخذة اليسرى رضواً اليمة نقل على
 اثرها الى مستشفى رينز في بيروت، وهناك كان يعود الاحباء والخلان يتسامرون
 ويهزجون ولم يكن يخطر لاحدهم ان ضربة الامين حاسمة قاضية . وتفاقت جراح
 فخذة واشتد الوجع ، وهو رابط الجأش صابر ، الى ان كان اليوم الثاني عشر من
 شهر سبتمبر ، يوم فقد الطب كل رجاء بالشفاء ، فنقل الى الفريقكة بناء على
 رغبته ، كأنه تذكر لامرتين في قوله : « اعزني ملجأ يوم واحدا وادي الطفولة
 انتظر فيه منيتي » فابى الا ان يغمض عينه في الوادي الذي احبه كل
 حياته .

ولما ملكته حشيرة النزاع ، تراحت في ذهنه ذكريات الامس كلها ، الآب
 مرقس وقضيه ، عمه عبده ونيوبورك ونيوبورغ والفواتير والمنزل الرطب والعريضة
 والتمثيل ونعوم ثم مي وبرتو والبادية ولبنات وام امين وسعدى والصومعة
 والفريقكة ، وارسل نظرة الى صميم الافق والى من حوله يودع ويحقد في رسول
 الموت وفارق الحياة ...

لقد صافح الموت باسملاً لا يخشاه وقد عهد « منبر الخلود » وكيف يخشى
 الموت من فرض على الزمان نفسه وفعله ، او لم يقل تازة Thésée (١) البطل
 اليوناني الباقي ، عندما احس النهاية « ها انذا ادنو من الموت قانعاً فبنو الانسان
 بعدي وبفضلي سوف يحيون اسعد من اسلافهم واكمل واوفى تحرراً . ان حُسير
 الانسانية المقبلة ، قد اخرجت انتاجي . لقد عشت حياتي .

وامين ، رحم الله اميناً ، لقد عاش حياته وفعل ... خير بني الإنسان .

وفي الغد دفن الامين بجوار امه بين دموع الاهل والرفاق (١) فمضى ذلك المجاهد المتمرد الذي لم يعرف الوهن ساعة في حياته ، وقد خلف آثاراً مخطوطة كثيرة ، بينها اربعة اجزاء من الريجانيات ، مجموعة مقالات وخطب وخواطر يعرض فيها عرض ذكرى وتفكير ما شعر به وراه في جولاته ومطالعائه الاخيرة بأسلوب هذب التمرس والاختبار ، وعدداً كبيراً من رسائله الخاصة ، التي كان يوجهها الى اشخاص اختلف طبقاتهم وجنسياتهم ، تم عن اخلاقه بوضوح وبعض كتب انكليزية - العراق - الملك فيصل - دروس في الف ليلة ليلة - وجده - وكرمه لا يلبث المستقبل ان يظهرها بعد حين ويظهر الريجاني حياً خلالها .

هذه هي المرحلة الثالثة من حياة اديبنا ، انتهت بموته كما رأيت ، مرحلة كلها عمل ونضال واضطراب لم يذق الراحة خلالها الا لمائماً . وجدناه في اولها يحقق حلماً تمكن منه ، يقصد البلاد العربية ، يحتمل مختاراً عناء التنقل المضني على ظهور الابل والحيل والحير في مناخ سيء حار ويقاسي المرض والآلام مخاطراً بحياته كل ساعة في سبيل توحيد الجزيرة وانهاض العرب وتقاربهم ، ثم سمعناه يندد بالانتداب ومريديه لا يخشى نفياً ولا عذاباً لاجل العدالة ويدافع عن فلسطين الشقيقة في الشرق والغرب بكل ما اوتي من عزيمة ومنطق وجراءة ، لا يتبغى الا خدمة الحقيقة والحير فمات وهو على اشدهما يكون حمية واستعداداً للقيام بالواجب الانساني ، لكننا نمارجهاده لم تمت بموته بل قاوم الفناء بعضها وحافظ ويحافظ على طراوته الشهية وفعاليته طالما للحرية يريدون « اشياء كثيرة تذكرنا هذه الايام بامين الريجاني ، اولها الصدام الضخم الذي يشهده العالم - ويشهد نهايته - بين قوى التقدم والرجعية ، لانشاء مجتمع جديد يتستع فيه الافراد والشعوب باكثر ما يمكن من اليسر والحرية . وثانيها مشي الشعب اللبناني قدماً نحو استكمال شروط السيادة والحياة الاستقلالية ،

(١) كانت مناحته سوقاً ادبية تبارى فيها الادباء والشعراء على اختلاف اقطارهم يعددون مزاييا الراحل ويقرون بفضل . وقد اصدرت المكشوف اذ ذاك عدداً خاصاً وصفت لمناحة وذكرت بعض المراثي .

وقد كان الريحاني من انشط العاملين ، بقلبه ولسانه ، في الحقل الوطني يلمس اثر ذلك في كل ما كتبه واذاعه ، وثالثها مشاورات التعاون العربي الذي كان الريحاني من اصدق الداعين اليه والساعين له عن الطريق المثلى طريق التعارف بين مختلف الاقطار العربية ، يعرف العرب بانفسهم ، ويعرف بعضهم الى بعض في مؤلفات قيمة ممتعة ، من « ملوك العرب » الى « قلب لبنان » (١) كما يذكرنا به كل تجديد جريء في حقل الادب وكل تضحية ابيه في خدمة العقائد السامية وكل صرخة صريحة في سبيل الانسانية والعدالة والحق .

* * *

وصية الريحاني

لا بد لي في ختام هذه الدراسة من ان اقول كلمة على وصية الريحاني (١)
وان اسرد بعضها لانها تلقي نوراً كشفاً على الحقائق التي اعتنقها الريحاني آخر ما
اعتنق واراد ان ينادي بها عبر القبور :

« لم تكن حياتي حياة القديسين والاولياء والمحمد لله ولا حياة اولي الثروة
او اولي السيادة والمحمد ثم الحمد لله ولا حياة ذوي الصحة البدنية والقوة
الحيوانية ذوي الاعصاب والعضلات الحديدية والمحمد ثم الحمد لله. ان ما فاتني من
الحياة اللامعة عرفته خلال الحياة الدامعة فالاثم والمرض والوحشة والحاجة هي
اصدق الادلاء الى الحقائق الانسانية في نواحي الحياة جمعاء وقد واليت الدليل في
الشرق وفي الغرب وتأبطت احد كتبه - كتاب الآلام - ثلاثين سنة وحملت في
جيبى كتاب الوحشة على الدوام وحاولت ان احرق كتاب الاثم وامزق كتاب
الحاجة فاخفقت وما استسلمت »

اوصي اليكم اخواني في الانسانية البيض والصفير والسود على السواء
شرقاً وغرباً .

١ - ان حق الشعوب في تقرير مصيرها لحق مقدس فاصيكم بالجهاد
في سبيله اينما كان .

٢ - ان الامة الصغيرة وهي على حق لاعظم من الامة الكبيرة وهي على باطل .

٣ - الامة القوية الحرة لا تستحق حريتها وقوتها ما زال في العالم امم
مستضعفة مقيدة .

(١) طاب ان تتل جثته الى افرسكة وان تتل وصيته في المآتم فلم يتل

٤ - لا تبلغ الانسانية اعلى درجات الرقي ما زال نصفها مستعبداً واعلموا ان الاستعباد الاقتصادي في البلدان المستقلة الفنية هو شر من الاستعباد السياسي والاقتصادي في البلدان التي لاتزال تحت سيطرة الاجانب ، اوصيكم بمحاربة الاستعباد اينما كان وكيفما كان .

٥ - الانتداب كما حدده وودرو ولسون الاميركي الخالد هو معقول مقبول ولكنه علمياً مكروه مردول انه اخبث من الاستعمار فاوصيكم بمجاهده حتى ينتهي . ثم ينتقل في الوصايا الباقية الى ابداء آرائه في الدين فيقول انه وحداني يعتقد ان جميع الانبياء من بوذا الى المسيح الى محمد الى بهاء الدين يعكسون النور الالهي ، ويحض على التعلق بالروح دوت المادة ثم يتكلم عن البلاد العربية وعن وسائل نهضتها القومية ، يهاجم رجال الاكليروس المستثمرين لان الدين ليس الا صلة حية منيرة بين المخلوق والخالق ويبشر بالاخوة الانسانية قائلاً انه لا ينبغي ان يقتصر المرء على خدمة وطنه دون سواه بل عليه ان يخدم الانسانية جمعاء ويتحرر من جميع القيود الاجتماعية والتاريخية والدينية التي يرسف بها ولا يبقى الا قيد الحب الذي يدنيه من خالقه ويجعله جديراً بالانسانية .

تلك هي باختصار وصية الريحاني تم كما لاحظت عن رجل مثالي واع اراد ان يحض على الواجب الانساني من خلال الثرى ، فندد بالاستعباد والاستثمار والحيوانية بصراحة لا تعرف الهوادة نادى عالياً مقتنعاً بالحرية والمحبة والمساواة ، مبادئ شاء تحقيقها لدى الغير فعاشها اولاً وجعل من ذاته وحياته قدوة لسواه انها لعمري شبيهة ابناء الخلود ! .

النسري

قريباً...

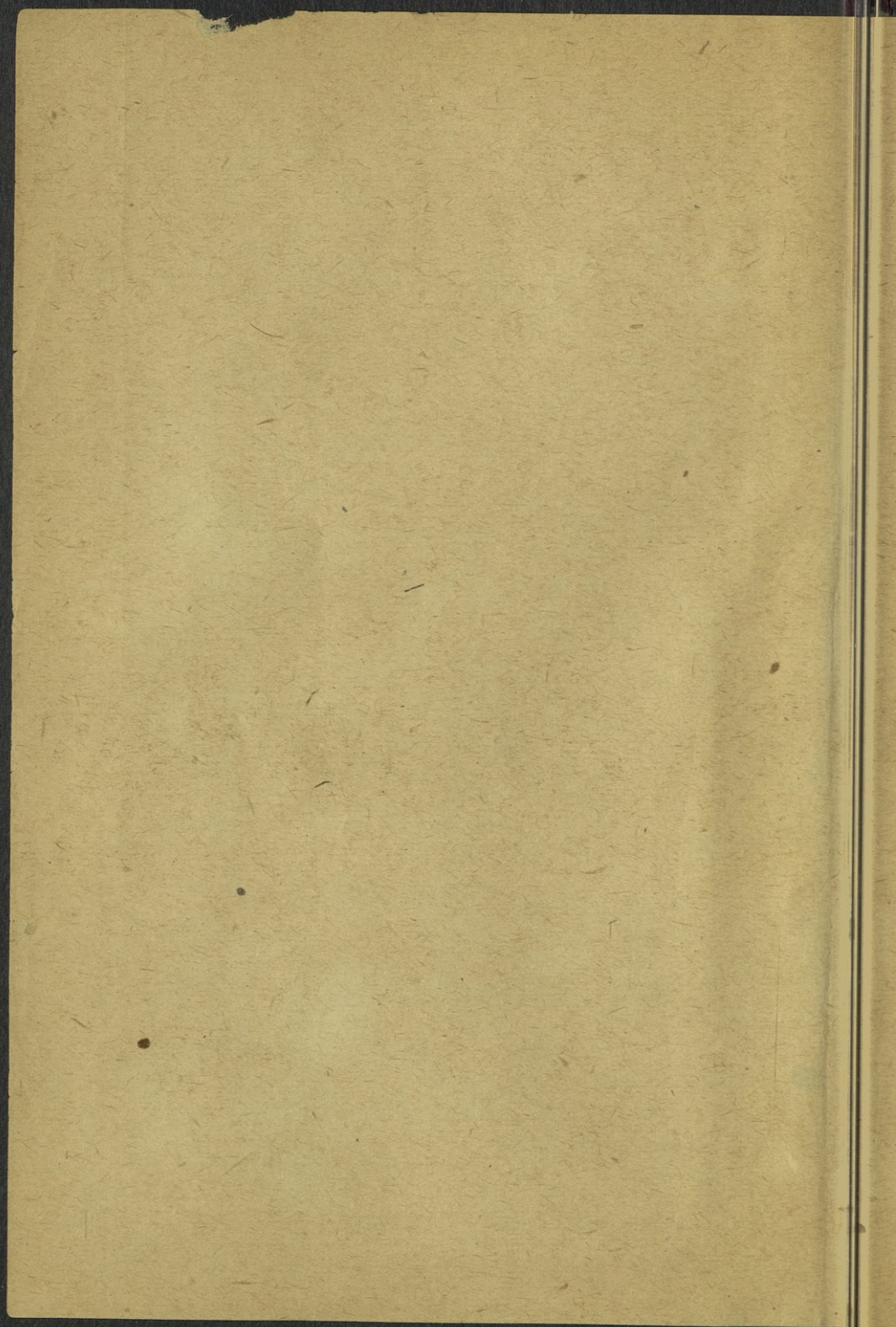
بين مي وجبرانه

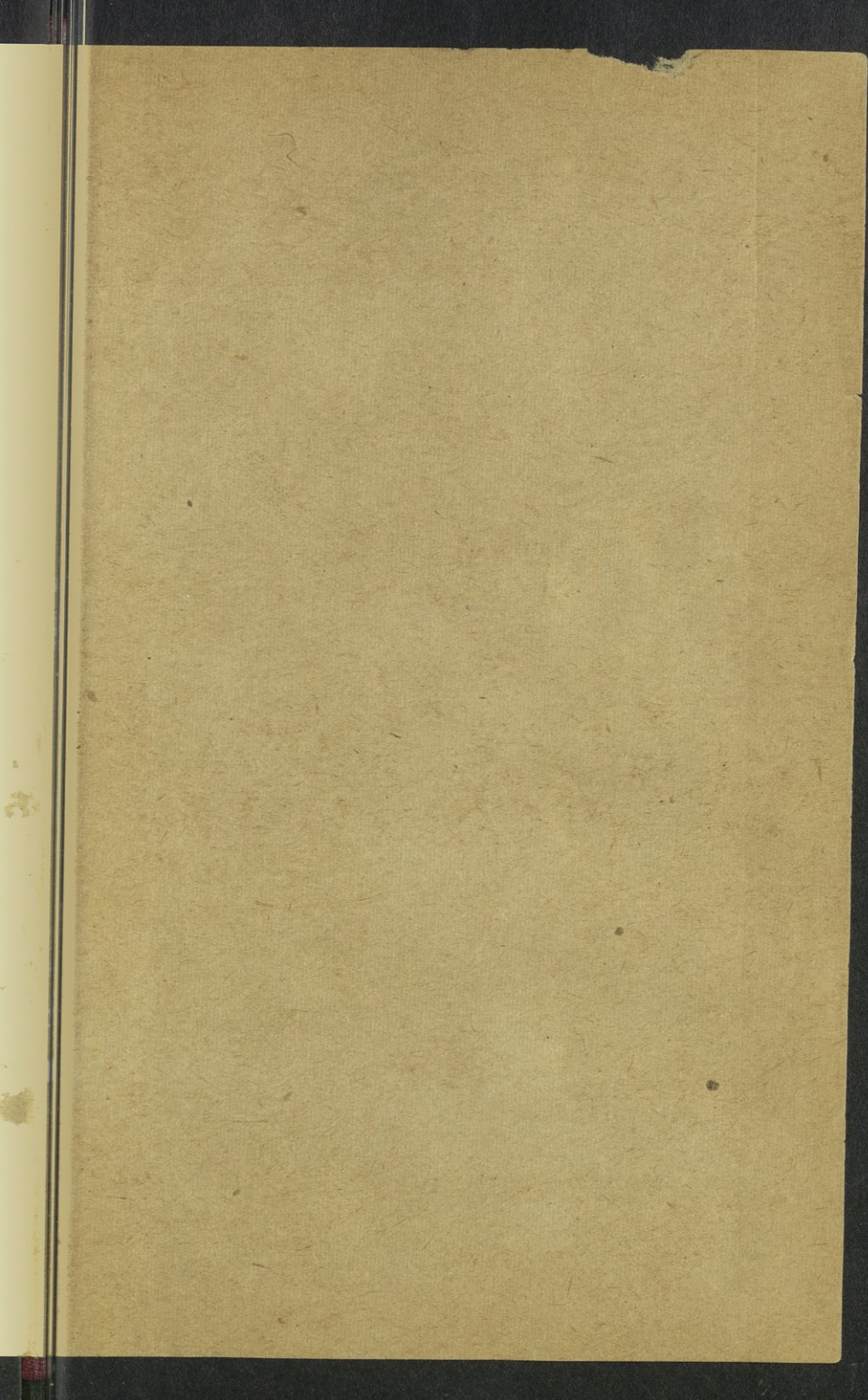
من الصميم

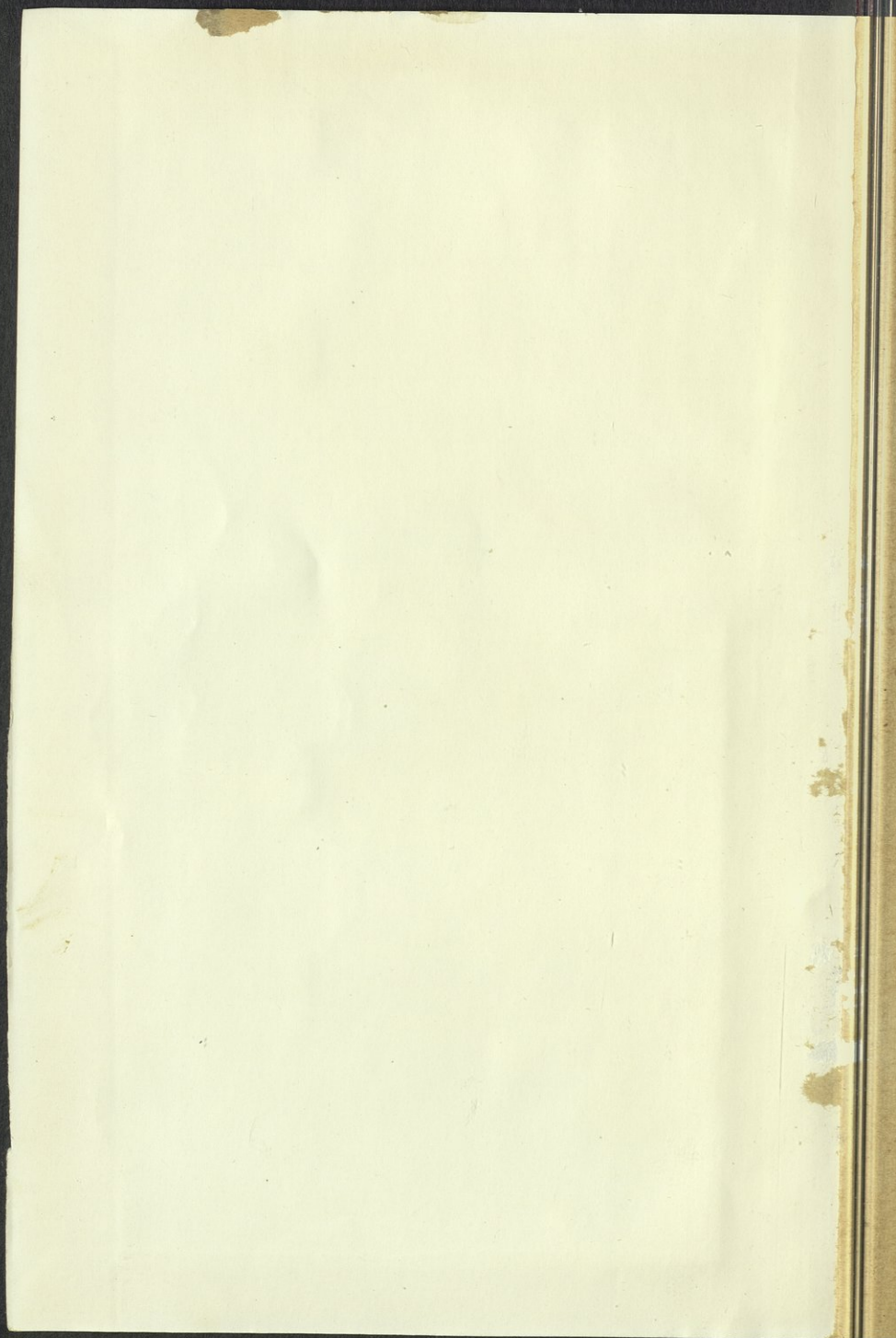
للمؤلف ذاته

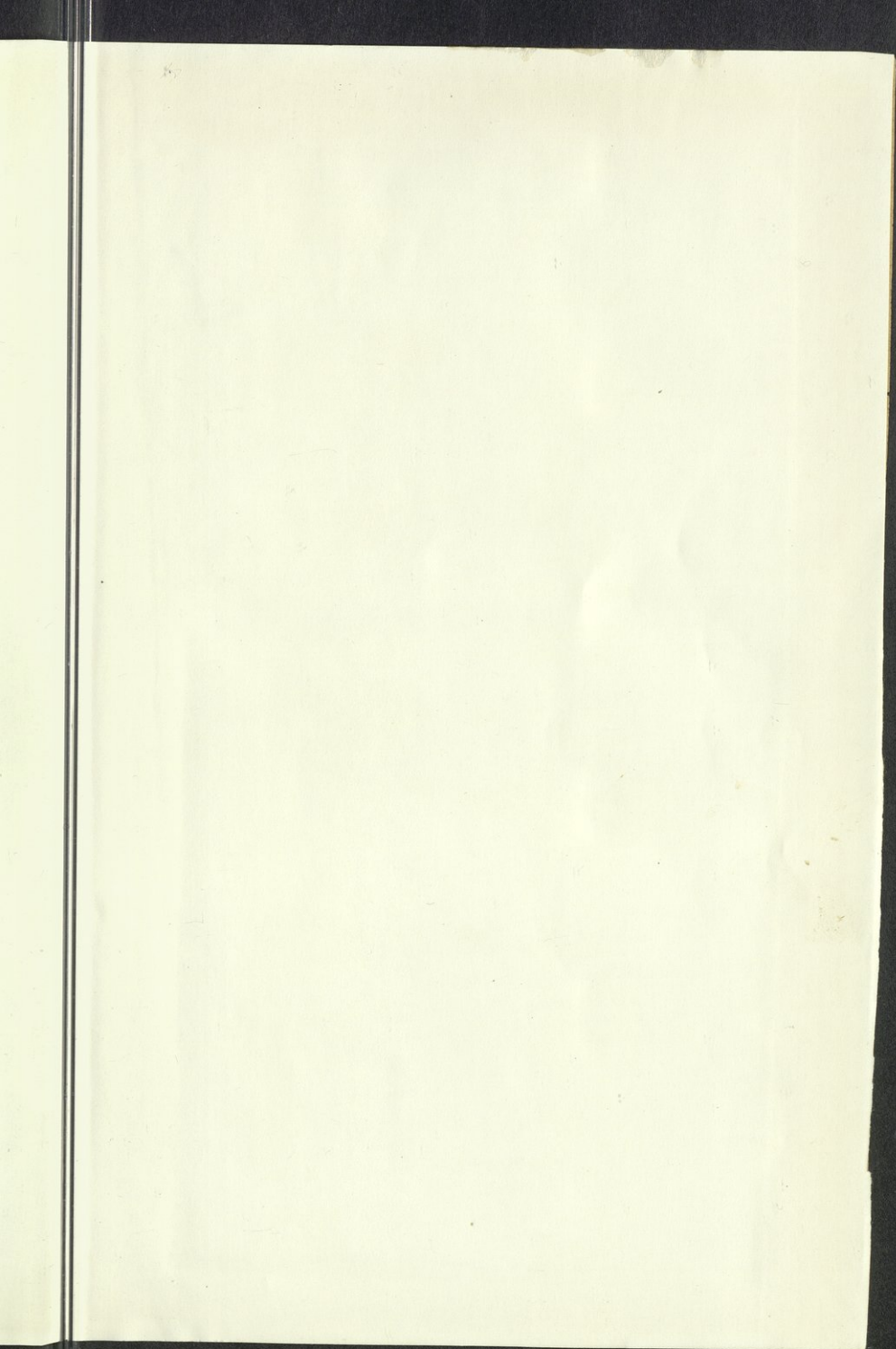
أولاده جبرانه

في الأدب العربي





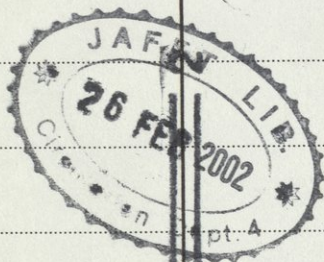






04 NOV 1998 DATE DUE

Circulation Dept.



Circulation

جبر، جميل
أمين الريحاني الرجل والاديب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039169

892.78
R572Yjr A
c.1